عزيز نسين

آه منا.. نحن معشر الحمير

قصص



ترجمة
جمال دورمش

عـزيـز نسين

آه منا نحن معشر الحمير

نقلها عن التركية: جمال دورمش

الطبعة الثانية ـ 1996

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب 34494

هـ: 7775872

تنضيد واخراج: هالة فطوم   تصميم الغلاف: جمال سعيد

لوحة الغلاف للفنان: موفق قات

آه منا نحن معشر الحمير

كنا، نحن معشر الحمير، سابقاً نتحدث بلغة خاصة بنا، أسوة بكم معشر البشر، هذه اللغة كانت جملية وغنية، ولها وقع موسيقي جذاب. كنا نتكلم ونغني. لم نكن ننهق مثلما عليه الحال الآن. لأن النهيق بدأ عندنا فيما بعد، وتعلمون أن جميع حاجاتنا ورغباتنا وحتى عواطفنا، نُفصح عنها الآن بالنهيق.

ولكن ما هو النهيق؟ هاق، هاق.

هو عبارة عن مقطعين صوتيين، أحدهما غليظ وثخين، والآخر رفيع، يصدران الواحد إثر الآخر.

هذا هو النهيق... الذي بقي في لغتنا، لغة الحمرنة، لكن كيف تغيرت هذه اللغة حتى أصبحت بهذا الشكل؟

ألا يهمك معرفة هذه الحكاية وكيف حدثت؟

حسناً إذاً، بما أنكم تهتمون بذلك، سأرويها لكم باختصار، لجم الخوف ألسنتنا وذهب بعقولنا، وبسبب الخوف نُسبنا للغتنا الحميرية.

في غابر الأزمان كان يلهو حمار هرم وحده في الغابة، يغني بعض الأغاني بلغة الحمير ويأكل الأعشاب الغضة الطرية، وبعد فترة من اللهو تناهت إلى منخريه رائحة ذئب قادم، من بعيد. رفع الحمار رأسه عالياً وعب الهواء ملىء رئتيه وقال: «لا يوجد رائحة ذئب، لا، لا ليست رائحة ذئب»، وتابع لهوه قافزاً من مكان إلى آخر، ولكن الرائحة أخذت تزداد كلما دنا الذئب أكثر. هذا يعني أن المنية تقترب.

ـ قد لا يكون ذئباً، قد لايكون، ولذلك حاول الحمار الهرم أن يطمئن نفسه، إلا أن الرائحة كانت تزداد باطراد، فلما ازداد الذئب اقتراباً،

كانت فرائص الحمار ترتعد رعباً ،ومع ذلك كان يحاول إقناع نفسه بأن القادم ليس ذئباً .

ـ إنه ليس ذئباً، إن شاء ا الله كذلك، ولم يكون كذلك؟ ومن أين سيأتي وماذا سيفعل؟ وهكذا ظل الحمار الهرم يخدع نفسه، حتى بات يسمع صوتاً غير مستحب، صوت وقع أقدام الذئب القادم.

ـ إنّه ليس ذئباً، لا ليس صوت ذئب، ولا يمكن أن يكون كذلك، وماذا سيعمل الذئب هنا، ولمَ سيأتي؟؟؟

ومع اقتراب الذئب أكثر فأكثر أخذ قلب الحمار يخفق وعيناه ترتجفان، وعندما حدّق عالياً صوب الجبل، رأى ذئباً مندفعاً مخلفاً وراءه سحباً من الغبار.

آه آه.. آه إنه ذئب، أكنتُ أحلم بذلك؟ قد يكون خيل إليّ أن ما أراه ذئباً أو كنت أحلم بذلك.

وبعد فترة ليست طويلة رأى ذئباً، قادماً من بين الأشجار، مرة ثانية حاول أن يطمئن نفسه قائلاً:

ـ أتمنى أن لايكون ما أراه ذئباً، إن شاء ا الله لن يكون كذلك، ألم يجد هذا اللعين مكاناً آخر غير هذا المكان؟ لقد أصاب الوهن عيني، لذلك أخذت أرى هذا الشيء القادم ذئباً.

تقلصت المسافة بينه وبين الذئب حتى أصبحت خمسين متراً. أيضاً حاول طمأنةَ نفسه قائلاً:

ـ إن شاء ا الله أن يكون ما أراه ليس ذئباً، قد يكون حملاً أو فيلاً أو أي شيء آخر. ولكن لِمَ أرى كل شيء بهيئة ذئب؟.

ـ أعرف تماماً أن ما أراه ليس ذئباً، ولكن لِمَ لا أبتعد قليلاً .

أخذ الحمار الهرم يبتعد قليلاً ناظراً إلى الوراء، أما الذئب فقد اقترب منه فاغراً فاه.

ـ حتى لو كان القادم ذئباً ماذا سيحصل... لا، لا لن يكون ذئباً، ولكن لِمَ ترتعد فرائصي؟

جهد الحمار الهرم أن تكون خطواته أسرع، حتى بات يركـض بـأقصى سرعة أمام الذئب المندفع.

ـ آه كم أنا أحمق فقد صرت أظن القطّ ذئباً وأركـض هكـذا كـالمعتوه، لا ليس ذئباً... زاد الحمار من سرعته حتى أخذت ساقاه ترتطمان ببطنه ومع ذلك استمر في خداع نفسه قائلاً:

ـ حتى لو كان الذي أراه ذئباً، فهو ليس كذلك، إن شاء الله لن يكـون كذلك.

نظر الحمـار الهـرم وراءه فـرأى عيـني الذئـب تشعان وتطلقـان سـهاماً نارية، وتابع ركضه مطمئناً نفسه بقوله:

ـ لا، لايمكن أن يكون ذئباً.

نظر الحمار خلفه عندما شعر بأنف الذئب يلامس ظهره المبلل، فوجـده فاغراً فمه فوق ظهره.

حاول الركض إلا أنه لم يستطع ذلك لأن قواه خانته، فأصبح عاجزاً عن الحراك تحت ثقل الذئب، ولكي لايراه فقد عمد على إغلاق عينيه وقال:

ـ أعرف تماماً أنك لست ذئباً.

ـ لاتدغدغ مؤخرتي إني لاأحب مزاح اليد.

غرز الذئب الجائع أسنانه في ظهـر الحمـار الهـرم، ونهـش منـه قطعـة كبيرة، ومن حلاوة الروح، كما يقولون، إرتبط لسان الحمار ونسي لغته.

ـ آه آه إنه ذئب آه، هو آه هو.....

تابع الذئب النهش من لحم الحمار الهرم ذي اللسان المربوط، حيـث لا يصدر منه سوى آه هو... هاق.... هاق.

منذ ذاك اليوم نسينا أيهـا السادة، ولم نسـتطيع التعبـير عـن رغباتنـا وأفكارنا إلا بالنهيق.

ولو أن ذاك الحمار لم يخدع نفسه، لكنا نجيد الحديث بلغتنا إلى الآن. ولكن ماذا أقول آه منا نحن معشر الحمير.. هاق... هاق...

❑ ❑ ❑

مدين لك بسعادتي

ـ لقد تعرفت على فتاة رائعة الجمال يا صديقي

ـ هل هي جميلة؟

ـ ماذا تقول!!... انظر إلى صورتها كم هي رائعة الجمال.

ـ حقاً إنها جميلة جداً.... ولكن حافظ عليها ولا تفرط بها.

ـ نعم، نعم لن أفرط بها.

ـ وهل أظهرت لك مودتها؟.

ـ أحياناً...

ـ إذا حاول أن تستحوذ على قلبها.

ـ حسناً سأحاول إظهار جلّ براعتي في هذا المجال.

* * *

ـ ما هي أخبارك يا صديقي، وهل من جديد؟

ـ وا لله، كل شيء على ما يرام، فكما قلت لك سابقاً لقد تعرفت على فتاة رائعة الجمال.

ـ ايهـ ـهـ ـهـ ـيه؟

ـ أحبها يا صاحبي، أحبها بجنون ولا أستطيع الابتعاد عنها، والعيش بدونها ضرب من المستحيل، تصور أنّ أوار حبها يتأجج في قلبي.

ـ وهل هي تحبك أيضاً ؟

ـ لا أدري!....

ـ إذاً حاول أن تجد إلى قلبها سبيلاً .

ـ وكيف ذلك؟

ـ كما تعلم يا صديقي فإني أمتلك التجربة في هذا المضمار. حاول أن تغرقها بالهدايا خاصة بالزهور، فالنساء كما تعلم يعشقن الزهور، خاصة القرنفل الأحمر، كذلك حدثها بشكل دائم عن ذكائك الرفيع.

* * *

ـ لا أدري كيف أعبر لك عن شكري وإمتناني.

ـ ماذا حصل؟

ـ كأنك يا عزيزي تعرف تماماً كل رغباتها، لقد نفذت وصفتك كاملة، ولذلك أخذت تنظر إليّ نظرة حب ومودة. بربك قل لي وماذا أفعل بعد ذلك؟.

ـ حاول أن تأخذها إلى دور السينما ولكن، إياك والأفلام الجادة، حاول أن تكون جميع الأفلام تراجيدية أو كوميدية أو موسيقية... وعندما تخرجان من دار السينما عرجًا على بائع المرطبات، وحاول أن تدعوها لتناول البوظة بالكريمة. كذلك أن تقتني في جيبك قطعاً من الشوكولا.

* * *

ـ ذهبنا البارحة إلى دار السينما، وهناك أعطيتها قطعة الشوكولا، لقد فرحت كثيراً وبعد انتهاء عرض الفيلم عرّجنا على بائع المرطبات وتناولنا البوظة بالكريمة ـ إنك ذو ذوق رفيع ـ سنحاول الذهاب في نهاية هذا الاسبوع إلى منطقة بعيدة وجميلة، لذلك ما هي نصحيتك بهذا الخصوص؟

ـ أستطيع القول، حسب تجربتي الشخصية.. أن أفضل منطقة هي «بويوك ادا» (الجزيرة الكبيرة) هناك حاولا التجوال على ظهور الحمير، إجلسا على الشاطىء، وارقصا، ولكن انتبه، إياك ومراقصة الأخريات.

ـ آخ يا صاحبي!.... لو استطيع الاستحواذ على قلبها.

ـ ستنجح في ذلك لا محال. إذا نفذت كلّ ما أقوله لك.

ـ ولكن لا أعرف كيف أعبر لك عن شكري الجزيل.

ـ أستغفر الله، ما هذا الكلام يا صاحبي، أنا لم أفعل شيئاً سوى أنني أحاول نقل تجربتي الخاصة كي تستفيد منها.

* * *

ـ هاه، قل لي هل تنزهتم الأسبوع الماضي؟

ـ نعم... رحنا وتسلينا كثيراً لكن، وإلى الآن لم استطع الحصول منها على أي شيء.

ـ قالت إنها متزوجة لذلك فإن جميع مشاورينا كانت ناشفة.

ـ ولكن لم تقل لي... هل تحب زوجها؟

لا... على العكس فهي تنعت زوجها بالأبله كالحمار، وبالجلف الذي لايعرف التعامل معها.

ـ مسكينة هذه المرأة، ولكن لمَ لا تنفصل عنه؟

ـ لقد لّحتْ ذات مرة قائلة: «لو أستطيع الاعتماد عليك لانفصلت عن زوجي» ولا أدري ما العمل؟.

ـ لا تتركها، حاول أن تكون صديقها الصدوق، والمعين الوفي.

* * *

ـ ماذا حصل، وما فعلتما؟

ـ لا تسألني يا صاحبي... إلى الآن لم أستطِعْ الحصول على قبلة واحدة منها، إنها خجولة جداً، ولكني واثق من حبها لي.

ـ حاول أن تستمر بإغراقها في الهدايا، ولا تنسَ العطور الفاخرة والنوع «سكاندال» (الفضيحة). كذلك يجب أن تهديها أقمشة ذات لون سماوي أو أزرق.

ـ وإذا عرف زوجها بالأمر فما العمل؟!...

ـ من أين سيعرف، أليست هي القائلة بأن زوجها رجل معتوه وأحمق؟ وإذا كنت ترغب في أن أذهب معك لشراء الأقمشة فلا مانع لدي.

ـ حسناً يا صديقي، وبأقصى سرعة إن أمكن.

* * *

ـ ما هي الأخبار؟.

ـ سارّة جداً يا عزيزي.

ـ هل تعلم بأنها فرحت كثيراً عندما أهديتها زجاجة العطر، وقالت أنه عطرها المفضل، وعندما رأت قطعة القماش... تصوّر يا عزيزي بأنها كانت ستفقد صوابها من شدة الفرح، ولكن إلى الآن ما زلنا كالمراهقين.

ـ حاول أن تقرأ لها بعضاً من أشعار يحيى كمال. وقل لها بأنك راغب في الزواج فيما لو انفصلت عن زوجها.

* * *

ـ ما بك يا صديقي، منذ فترات طويلة لم ألتقِ بك، أين أنت؟

ـ مشاغل الحياة يا صاحبي! انفصلت تلك المرأة عن زوجها.

ـ وهل ستتزوجها؟.

ـ بالطبع، ولم لا؟؟؟؟

ـ ولكن لاتضيعْ الفرصة، هيا أسرع بزواجك منها قبل أن يطرأ على علاقتكما أي جديد.

* * *

لا أعرف كيف أعبر لك عن شكري وامتناني؟.

ـ لقد تزوجنا البارحة وبذلك أكون مدين لك بسعادتي.

ـ وأنا بدوري لا أدري كيف أرد لك جميلك، فأنا مدين لك بسعادتي لأنني انفصلت عن زوجتي.

❒ ❒ ❒

القطة السعيدة

التقت مجموعة من الأصدقاء والمعارف في حفل افتتاح معرض للفنون الخزفية الذي أقامته إحدى فناناتنا المشهورات.

ساد اللقاء جو من الحديث الشيّق والحار، هذا يناقش صديقه، وذاك يعاتب صاحبه وهكذا.. أثناء ذلك تقدمت فنانة أخرى قائلة: «يا أولاد، البارحة حلمت حلماً ...»

قاطعها أحد الشعراء: «أكان مزعجاً؟»

لا أدري ، لكن أما من أحد يفسر حلمي؟

وراحت الفنانة تحدثنا عن حلمها.

كنت سائرة بين مجموعة من الأشخاص، هذا ذاهب إلى عمله وذاك عائد منه، أما أنا فقد كنت هناك، كما أسلفت، ذاهبة إلى مكان ما، وفجأةً سمع صوت أحدهم يقول: «أنا...!!».

استدار الجميع إلى مصدر الصوت. بينما راح صاحبه يتابع ما بدأ به: «أقول لكم ليقف كل في مكانه».

«فوقفنا جميعاً...»

سألها أحد النحاتين: «ولمَ وقفتم؟.»

ردت عليه الفنانة قائلة: «ومن أين لي أن أعرف، المهم وقفنا، ألم أقل لك مجرد حلم».

تابع صاحب ذاك الصوت قائلاً: «والآن ليرسم كل منكم دائرة بالطباشير حول نفسه». فظهر بيد البعض قطع من الطباشير ورسم كل منهم دائرة حول نفسه.

لكن أحد المتواجدين هناك استفسر قائلاً: «ليس لديّ طبشورة ماذا عساي أن أفعل؟.»

أجابه ذاك الرجل: «من ليس لديه طبشورة ليرسم بقلمه».

راح البعض يرسم دائرته، بقلم رصاص والآخر بالمداد الجاف أو السائل بحثت مليّاً في حقيبة يدي، علّي أجد قلماً ولكن عبثاً ولحسن الحظ لم أكن الوحيدة في ذلك، حيث ظهر عدة أشخاص لايملكون أقلاماً.

لا أدري ما سبب الخوف الذي تسلل إلى أعماقي حتى رحت أرتجف وترتعد أوصالي، أحد أقراني ممن ليس لديهم قلم سأل صاحب ذاك الصوت: «ليس لدينا أقلام، ما العمل؟».

ردّ عليه قائلاً: «من ليس لديه قلم ليرسم دائرته بنفسه».

وضعت كعب قدمي كمركز فرجار ورحت أدور حول نفسي راسمة دائرتي المطلوبة.

أحد الحضور سأل فنانتنا:

ـ ولمَ رسمت الدائرة؟.

ـ ما هذا السؤال! ألم أقل لك أنه مجرد حلم.

تدخل ممثل آخر بالحديث قائلاً: «إن الأحلام عادة لاتتسم بالواقعية».

وهكذا دبّ النقاش بين الحضور حول واقعية الأحلام.

وفي النهاية توصلنا إلى نتيجة مفادها أن الأحلام ليست منطقية ولا واقعية.

بعدما رسم الجميع دوائرهم، طلب صاحب ذاك الصوت عدم مغادرتها، وبالفعل تجاوب الجميع للأوامر. وبذلك أصبحنا أسرى دوائرنا.

سألها أحد الشعراء: «ألم تستطيعوا الخروج من هذه الدوائر إطلاقاً؟»

ردت عليه قائلة: «لا، لم نستطيع الخروج بتاتاً».

ـ ولماذا؟

ـ يا أخي ممنوع، ممنوع الخروج من الدوائر، ممنوع ألا تفهم؟.

عاود أحد النحاتين وسألها: «حسناً فهمنا أنه ممنوع، لكن لماذا؟»

استشاطت الفنانة غضباً إلا أنها كبتت غيظها وقالت: « يـا روحـي ألم أقل لكم أنه مجرد حلم». أهناك أسباب ومسببات في الأحلام. وهكذا بقينـا داخل دوائرنا.

ـ حسناً ولكن ليس لديك دائرة؟.

ـ ألم أرسمها على الهواء؟

ـ لكنها ليست مرئية، وحدودها ليست واضحة.

ـ لم أستطيع الخروج منها، ولكن كيف؟ لا أدري!

ـ لم لاتخرجي من دائرتك وما المانع؟.

ـ لأنه لا أحد يخرج من دائرته كي أتشجع وأخرج بدوري.

ـ ولم؟

ـ آه (أمان يا ربي)، لمَ لمَ لمَ ألم أقل لكم أنه مجرد حلم.

ـ آه نعم.

ـ رغبتي كانت جامحة للخروج... لو أستطيع مدّ إصبعي كي تمحوا مـا رسمته، حاولت ذلك لكن صراخ صاحب ذاك الصوت زلـزل أحشـائي ــ لا أحد يمحوا دائرته ـ وهكذا أصبحت أسيرة دائرتي.

ولكن ـ قال أحد المثلين ـ منذ البدايـة كـان عليـكِ أن لا ترسمـي تلـك الدائرة.

ـ أنت محق بذلك، ولكن عزائي أنني لست الوحيدة حبيسـة دائرتهـا، لقد أشفقت كثيراً على ذلك الشاب المشلول سمعته يقول: «عشـرون عامـاً وأنـا طريح الفراش لا أستطيع الحراك، أما الآن وبعد احتباسي داخل هذه الدائرة، تولدت في أعماقي رغبة راحت تمزقني وتدفعني للخروج من هذه الدائرة».

ـ ولكن كيف ستخرج، وأنت لا تستطيع الحراك؟.

ـ كما قلت لحظة احتباسي داخل هذه الدائرة اللعينـة، شعرت بـأنني قادر على الخروج مشياً، بل قولي ركضاً، لو يسمح لنا بإزالة هذه الدائرة!.

إلتفتُ إلى الوراء وإذا بي أمام امرأة نائمة، نظرت إليها بإمعان وجدتها بلا روح، نعم بلا روح، ولكن الغريب بالأمر أنها تتكلم وتقول: آه.. لو تمسح هذه الدوائر لخرجت وتفسحت قليلاً.

سألتها: «أيعقل هذا، أنت ميتة وتتكلمين؟»

ردّت عليّ قائلة: «منذ أن فارقت الحياة ورغبتي في القيام بالزيارات، ماتت في أعماقي، لكن منذ أن حبست داخل هذه الدائرة عادت هذه الرغبة تتفجر في أعماقي من جديد، آه، لو لم أكن أسيرة دائرتي، لاستطعت المسير والزيارات مثلكم أيها الأحياء».

التفتُ ثانية إلى الأمام وإذا بي بشاب مفلوج يقول: «آه لو يخرج أحدهم ويزيل خط دائرتي ويخرجني من هنا ويخلصني من هذا البلاء».

قلت له:

ـ أنت مفلوج ولا تستطيع الحراك، كيف رسمت هذه الدائرة.

أجابني قائلاً:

ـ نعم، معك حق، أنا لم أرسم دائرتي بيدي، بل برأسي، وإنّ ما قمت برسمه لم يكن سوى مشروع دائرة.

جميعنا هنا محتجزون داخل دوائرنا، رسمناها بأيدينا أو بأقلامنا وحتى برؤوسنا ولا نستطيع الخروج منها، وبذلك نقف عاجزين أمام دوائرنا.

بعد فترة احتباس داخل الدوائر، راحت تتغير العبارات، وتصبح على الشكل التالي: «آه لو يأتي أحدهم ويمسح دوائرنا، ويخلصنا منها، وهكذا راحت الأصوات تتعالى: «آه لو يأتي أحدهم وينقلنا، آه لو يأتي أحدهم وينشلنا من دوائرنا».

وباعتبار أن الجميع كان يردد هذه العبارات، لذلك رحت بدوري أردد نفس العبارة. أثناء ذلك راح الليل ينسج خيوطه المظلمة ويلقيها علينا.

آه سأفقد عقلي أما من منقذ ينقذنا؟

فجأة صدر صوت جديد وبنبرة جديدة: «آه.. لو يخرج أحدهم من دائرته لخرجت مباشرة».

وهكذا رحنا نردد نفس العبارة، راحت الأصوات تتعالى: «ليخرج ذاك الشخص وليكن من مكان».

ولكن رغم جميع الصوات لم يخرج هذا (الأحدهم)، ويقول: أنا هو الذي تبحثون عنه.

غطت الظلمة جميع أصقاع المنطقة ونحن ما زلنا محتبسين رهن دوائرنا.

في تلك الأثناء راحت قطة ذات عينين براقتين تصول وتجول بين دوائرنا، لا أحد يردّها أو يقول لها من أنت وإلى أين ذاهبة؟

قلت بيني وبين نفسي، آه لو كنت قطة، ما أسعد هذه القطة. راح الجميع يحسد القطة على حريتها.

كم هي ذكية هذه القطة، وكأنها عرفت ما يجول في أعماقنا، لذلك راحت تعاكسنا غير آبهة بأحد.

انزعجت كثيراً من هذه القطة، وعلى أثر ذلك فتحت عينيّ، وإذ بي سابحة في بحر من العرق. وبعد أن أنهت فنانتنا حديثها عن حلمها قالت:

- والآن أما من أحد يفسر حلمي.

حاول أحد الكتاب التظاهر بالمعرفة إذا قال: «عندما لايستطيع المرء أن ينجح في أن يسلك سلوك الانسان، يحاول أن يهتم بسعادة القطط، على كلّ سأقوم بكتابة كل ما تحدثت به.

تدخلت تلك الفنانة منزعجة: «ولمَ ستكتب؟».

تدخل النحات قائلاً: «قد يجد أحد القراء في نفسه الكفاءة ويلقي بنفسه خارج دائرة، وبذلك يظهر هذا الأحدهم الذي كنتم تبحثون عنه، وتخرجون من دوائركم.

❑ ❑ ❑

من يأكل الحصرم ومن يضرس؟

مرّ بجميع مكاتب التشغيل بلا استثناء، والرد الوحيد دائماً «دع عنوانك وسنخبرك عند اللزوم». عند عودته إلى البيت، وفي كل مرة كانت زوجته تقابله بسؤالها المعهود والممل: «هل وجدت عملاً؟»

ولكن، في هذه الأيام، أن تجد نقوداً في الطرقات أهون من أن تجد عملاً وكثيراً ما كانت زوجته ترخي العنان لقنابلها الثقيلة: «لم أر رجلاً مهملاً وأحمق، وعديم الثقة بنفسه مثلك».

- وعدني أحد الأصدقاء بأن يساعدني غداً.
- وبماذا سيساعدك؟ هاه!
- بإيجاد عمل يا حياتي.
- لقد خلقت الزوجة من هذا الرجل الملاك أكبر كذاب.
- وأي عمل هذا؟
- عمل رائع، وعال العال.
- فهمنا، ولكن ما العمل؟
- العمل يقوم به المرء بقدميه وهو جالس في مكانه!
- وأيّ عمل هذا الذي تتفصح به؟!
- نعم... العمل على مكنة الخياطة.
- وكم سيدفع لك؟
- ثلاث مئة ليرة.

استفساراتهم وحديثهم السفسطائي والخالي من الطعم كثيراً ما كان يستمر لساعات طويلة.

في اليوم التالي سألته زوجته:

هل بدأت العمل؟

ـ ذهبت... ولكن لسوء الحظ فقد توفيت زوجته، الله يرحمها... وتأجل الموعد إلى يوم الأربعاء.

الأربعاء..... الخميس... وتتالى الألاعيب والأكاذيب التي لاتنتهي.

وذات يوم طفح الكيل، كما يقولون، فهددته زوجته: «تعلمت على الكسل، لذلك إن لم تجد عملاً، فو الله العظيم لن أدخلك هذا البيت».

في ذات اليوم وضع عنوانه في أربعة أو خمسة مكاتب. وفي المساء عاد إلى المنزل فراح يطرق الباب طرقات سريعة صائحاً بأعلى صوته...

ـ البشارة... البشارة يا زوجتي تهانينا، وجدت عملاً وبدأت به مباشرة.

فتحت الزوجة الباب سعيدة بزوجها، وهو بدوره راح يحدثها عن هذا العمل بل أخذ يجمله بنظرها لدرجةٍ بات يصدق ما يقول.

ـ هيا يا عزيزي نم باكراً، كي لا تتأخر صباح الغد.

وفي الصباح شيعت الزوجة، بعلها متمنية له الخير والنجاح، أما هو فقد أخذ يتسكع باحثاً عن عمل في الشوارع الحدائق. وعند المساء عاد إلى البيت وراح يصرخ ويهدد مثل كل الرجال.

استمرت هذه الحياة المليئة بالأمل لمدة خمسة وعشرين يوماً. ولكن المسكين راح يضطرب أكثر، فأكثر مع دنو قبض الراتب.

كان قد أبلغ زوجته بأنه سيقبض ثلاث مائة ليرة، لذلك كانت تخطط في سُبل صرف المبلغ المحترم.

قال لها:

ـ خذي الأولاد، واذهبي إلى أمك، وفي أول الشهر تعودين!

حملت المسكينة أولادها ميممة شطر أمها دون أن تنبسَ ببنت شفة.

أما الرجل النشيط فقد اتخذ قراره في السرقة، عاين الشقة التي سيدخلها.

في الليلة الأخيرة من الشهر.. أخذ يتجول حول البناء المذكور، لحظات وانطفأت الأنوار في الشقة المستهدفة، وفي الطابق الثاني كانت الأسرة صاحبة الشقة معتادة على الخروج من المنزل في مثل هذا الوقت، إما إلى السينما أو للسهر عند الجوار.

خطة رائعة، وحظ أروع، إذ كان يستطيع الدخول دون وجل، دار خلف البناء، لم يكن هناك من أحد، تسلق جدار الحديقة المنخفض، تمسك بحديد النافذة السفلية. ثم تسلق ماسورة وبهذا الشكل لم يكن الصعود إلى الشرفة صعباً، ما هذا القدر حتى باب الشرفة كان مفتوحاً! دخل الشقة بجرأة وكأنه مالكها، أنارها! مسح أغراضها بعينيه مستطلعاً الموجودات، لم تكن الشقة تحوي أغراضاً غير صالحة للسرقة، ففي البوفيه وداخل العلب المذهبة كانت الفناجين النفيسة. وكانت الخزائن مليئة بالملابس الفاخرة مدّ يده مباشرة إلى جيب الجاكيت وسحب حقيبة النقود المنتفخة والمليئة، وتجمدت عيناه عندما وجدها مليئة برزم من ذات الخمسين والمئة، لذلك لم يكن بحاجة للاستمرار باحثاً في غرفة النوم. سحب ثلاثمائة ليرة فقط وجلس إلى الطاولة كاتباً.

«سيدي العزيز:

دخلت شقتكم بقصد السرقة، كنت بأمس الحاجة إلى ثلاثمائة ليرة، صدقاً سأعيد المبلغ حال توفره لدي».

وضع القصاصة وخرج من الشقة بسهولة مثلما دخلها، وبذلك سيتخلص من لسان زوجته شهراً وسينام مرتاحاً لأول مرة منذ فترة طويلة.

اقترب من منزله فوجد الضوء مناراً، استغرب كثيراً فزوجته في بيت أهلها، ربما عادت، حسناً سيلقي المبلغ في وجهها ويصرخ كي يثبت رجولته. فتح الباب فجأة أشهر في وجهه المسدس: «إرفع يديك!!!»

بينما اقترب منه شخص آخر قائلاً: «ولك! أي إنسان أنت؟» أما فكرت أن لصاً سيدخل بيتك يوماً ما! نحن هنا منذ ساعتين ولم نعثر على شيء ألا تخجل!!!

فتشوه فوجدوا المبلغ في جيبه، أخذوه وانصرفوا.

أشرقت الشمس والرجل يفكر بالأكاذيب التي يمكن أن تنطلي على زوجته، طرق الباب، قد يكون الطارق زوجته، فتح الباب وفرائصه ترتعد رعباً، لكن المفاجأة كانت كبيرة إذ برجلي شرطة ممسكين باللصين! إلتمعت عيناه من الفرح... سأله الشرطي: «النقود لك؟»

شيء ما تحرق في جوفه، كيف لا وهو السارق أيضاً.

- إن هذين الأحمقين إعترفا أنهما دخلا منزلك وأخذا النقود بالقوة. إذاً هذه النقود أصبحت من نصيبه ونصيب زوجته.

- ولكن من أين حصلت على هذه النقود؟

صعق الرجل وتغيرت سحنته من هول ماسمع.

... إذاً عرفوا أنه سارق أيضاً.

- إن النقود التي بحوزتك مزيفة يا أفندي.

تهاوى الرجل في مكانه إثر قول الشرطي.

طلب منه الشرطي أن يرافقهم إلى المخفر.

□ □ □

أكره التملق

دخل إلى المركز الصحفي الذي أعمل فيه، وكنا يومها بحدود تسعة صحفيين وكانت المرة الأولى لذلك لم أعرفه، ومما زاد استغرابي أن جميع أصدقائي هبّوا واقفين، لذلك وبشكل لاشعوري وقفت. نكزني أحد أصدقائي قائلاً: «هيه إنتبه إنه كاظم بيك!»

ارتعبت كثيراً حتى ظننت أن قلبي هوى إلى ركبتي، كيف لا؟!! وهو ذاك المليونير الذي يملك الملايين عدا عن ذلك فهو صاحب هذا المكتب الصحفي...

- اجلسوا...!... صرخ كاظم بيك بأعلى صوته.

جلس الجميع إستجابة لأوامره عدا شوقي أفندي فقد ظلّ واقفاً، فمن الجدير ذكره أن شوقي أفندي هو رئيس التحرير.

- هيا اجلس فأنا لا أحب التملق.

- على رأسي يا بيك، لنجلس إذا كانت هذه رغبتكم.

إلا أنه ظل واقفاً كالقصبة، والأنكى من ذلك أنه ضمّ كلتا يديه فوق بطنه ولوى عنقه على كتفه.

من المعروف عن كاظم بيك كرهه الشديد للتملق والمتملقين برافو أحييه على هذا الموقف الرائع.

تفرست في وجه شوقي أفندي دون أن يشعر بي لأنه كان منشغلاً بتحريك عنقه الملوي مبدياً إعجابه بكلمات كاظم بيك، لم يكتف بذلك، بل راح يكرر كلماته المعهودة، «نعم هذا واجب مقدس على كل واحد منا».

صرخ كاظم بيك وبأعلى صوته: «هيا إجلس في مكانك..؟»

- نعم يا سيدي سأجلس وأنفذ كل ما تأمرون به.

لكن هذا الصفيق بقي واقفاً ولم يجلس.

ما هذه الصفاقة والوقاحة! كاظم بيك يأمره بالجلوس ويقول إنه لا يحب التملق والمداهنة بينما هذا يقف حانياً عنقه على كتفه مردداً نعم يا سيدي وأمرك يا سيدي ولكن، آخ لو كنت بجانبه لدققت عظامه وصرخت في وجهه بأعلى صوتي: «لِمَ لا تجلس أيها المعتوه...»

غضب كاظم بيك من هذا الموقف وصرخ ثانية: «لِمَ لا تجلس أنا لا أحب التملق ولا حتى المتملقين، هيا اجلس وتابع عملك!...»

مرة أخرى راح يكرر نفس العبارات «على رأسي ياسيدي، تأمر أمر، أجلس» وكذلك ظل وقفاً دون حراك.

شُدِهَ كاظم بيك من هذا الموقف حتى أنه لم يستطع الحديث إلينا ولا حتى الانصراف لقد لجمه تصرف هذا المعتوه وما كان إلا أن غيّر طريقة تعامله مع شوقي أفندي، وبذلك راح يحدثه بكل لطف ومودة.

- لِمَ لاتجلسون يا عزيزي، تفضلوا بالجلوس يا صديقي، أرجوكم اجلسوا ولا تزعجوا أنفسكم.

أجابه شوقي:

- أستغفر الله يا سيدي، عذابكم راحة لي يا سيدي، أتمنى أن لا أقصّر أمام شخصكم الكريم.

لم يستطع كاظم بيك تحمل هذا الموقف وما كان منه إلا أن أطلق ضحكة مجلجلةً ملؤها التهكم والسخرية وقال له:

- إسمكم الكريم شوقي أليس كذلك!!!

- نعم يا سيدي. أستغفر الله يا سيدي، أرجوكم يا سيدي، لم أفعل شيئاً بعد.

تأجّج الغيظ في داخلي وراحت رغبة عارمة تمزقني وتدفعني كي أصفعه على وجهه وأمسكه من خناقه وأرفعه عالياً وألقيه في مكانه.

كثيراً ماكان أصدقائي يحدثوني عن شخصية شوقي أفندي هذا، والجدير بالذكر أنني حديث العهد في هذا المكتب ولم يمض على تعييني أكثر من شهر.

ـ لِمَ لا تجلس يا أخي!...

ـ أستغفر الله يا سيدي، إن الجلوس يسيء الأدب لشخصكم الكريم، لذا أستميحكم عذراً بالسماح لي بالوقوف لأنه يريحني ويجلب السعادة والطمأنينة إلى قلبي.

كان شوقي أفندي يستجدي كاظم بك بالسماح له بالوقوف بصوت أقرب ما يكون إلى البكاء، وعندما لم يتمكن كاظم بيك من إجلاسه استدار نحونا وقال:

ـ أنا لاأحب التملق ولا المتملقين، أفهمتم؟ إسمعوا جيداً، عندما أدخل ثانية لا تقفوا لي فهذا يزعجني، فمن الأجدر بكم متابعة العمل.

استدار وخرج من الغرفة غاضباً.

تبعه شوقي أفندي مردّداً ديباجته التي باتت معهودة للجميع: «نعم يا سيدي على رأسي يا سيدي».

في فرصة الغداء راح كريم يعبّر لي عن استيائه وتذمره من شوقي أفندي:

ـ يوه، كم هو متملق! فأنا لم أصادف بحياتي متملقاً مثل هذا ولا حتى سمعت عن ذلك.

ـ يوه ه ه... لاتقل ذلك، صحيح أن مجد التملق الشرقي قد ولّى دون رجعة، ولكن هذا لاينفي عدم وجود تملق غربي أوروبي.

ـ من المعرف عنه، بأنه يبدأ حديثه بشكل دائم، بأنه لايحب التملق والمداهنة إنك لا تعرف ماهية التملق الغربي، وإلا لعرفت الفرق بين التملق الغربي والشرقي.

على كل إنسان وخاصة الأغنياء جَمْع عدد من المتملقين حولهم، مسكين كاظم بيك يملك كلّ هذه الأموال والبيوت، والعقارات والعزب، السيارات والزوجات والعشيقات، ومع ذلك تجده يائساً لايحب الحياة لماذا؟ لأنه لم يستطع جمع عدد من المتملقين، عندما تسمعه يقول:

«لا أحب التملق» فإنه يقصد بأنه لم يستطع العثور ولا على واحد منهم، إنني أحزن عليه كثيراً مسكين كاظم بيك، قل لي ماذا تعمل السكرتيرات لدى الأغنياء في أمريكا، آه؟ بالطبع يتملقن لكن، على الطريقة الغربية.

ـ لقد أثبتَّ لي يا كريم بأنك ضليع في علم التملق.

ـ نعم، لقد تعرفت على علومه وتبحرت في فلسفته، وقريباً إن شاء الله ستسمع أشياء كثيرة... وبالفعل لم يمض على حديثنا هذا فترة طويلة حتى ارتفع راتبه وأصبح بحدود ـ ثلاثمائة ليرة علماً أن أجره الشهري كان مثل أجري بحدود المائتين لأنه بدأ العمل قبلي بثلاثة أشهر.

لقد أدت هذه الزيادة غير الطبيعية إلى ضجة وبلبلة وسخط بين أوساط العاملين القدامى والذين تجاوزت خدمة البعض منهم السنتين.

ليثرثروا ما شاء لهم فإن راتبه ارتفع إلى الأربعمائة ليرة وعين رئيساً للمكتب، بينما أصبح شوقي معاوناً له، لم يعد كريم كما كان فمجيئه إلى العمل كان نادراً، مرة في الأسبوع أو مرتين، فيما بعد ارتفع راتبه إلى سبعمائة وخمسين ليرة، هكذا كان يزداد راتبه وبذلك تزداد الهوة في علاقتنا، بينما راح الأصدقاء في المكتب يطلقون عليه لقب البيك، وبالأخص صاحبنا رئيس المكتب السابق ـ شوقي بيك ـ فقد كان يقف أمام كريم مزرراً جاكيته ومردداً ـ «يا سيدنا شخصكم الكريم».

راح كريم بمرافقة كاظم بيك في سفراته الأوروبية، وذات مرة ارتفع راتبه إلى الألفي ليرة، بعد عودتهما، وبعد فترة أخرى إلى خمسة آلاف والغريب في الأمر أن لا أحد يعرف طبيعة عمله، البعض يقول إنه معاون كاظم بيك والآخر يقول إنه سكرتيره أو وكيل أعماله. لكن المعروف للجميع أنه كان ينوب عن كاظم أثناء غيابه.

صديقي كريم والذي أعرفه تماماً ـ شخص لايتسم بأية سمة غريبة، لا ذكاء خارق ولا ديناميكية غير طبيعية ولا حتى مكانة علمية ـ شخصية كانت غير مفهومة بتاتاً وحتى أنها غامضة ولم يفهمها أحد سواي، لأنني أعرف تماماً كيف صعد السلم الوظيفي، وكيف تسلم مناصب عدة كل هذا تمّ عبر التملق الغربي. لكنني لم أتعرف على كنه هذا التملق، لكن فيما بعد تعلمت أبجديته تماماً كاظم بيك غني جداً كما أسلفت، يملك خمس أو ست مؤسسات ومن بينها المكتب الذي أعمل فيه.

ذات يوم وبمناسبة مرور عقدين على تأسيس المكتب قدّم لكل واحد منا مكافأة بحدود أجر شهر، كذلك أقام حفلة ساهرة في أفخم فنادق المنطقة.

في هذه الأمسية بالذات تعرفت على سرّ نجاح كريم، وكيف استطاع إستيعاب مبادىء التملق الغربي.

جلس كريم بجانب كاظم بيك، إذ كان لايبعد عني فبيني وبينه ثلاثة أشخاص لذلك كنت أسمع حديثهما بشكل جيد، أو بالأحرى أتقصد سماعهما بشكل جيد، في نفس الوقت كنت أراقب تصرفات وسلوك كريم أفندي، عندما وقف كاظم بيك كي يشرب بصحة الحاضرين، أمسكه من يده وقال:

ـ لايجوز!... إنه مضر بصحتك.

ـ لا، لايهم، أجابه كاظم أفندي، قدح واحد فقط.

ـ رد عليه كريم بقسوة وعجرفة: «لايجوز يعني لايجوز، وإذا كنت راغباً بذلك، إشرب، فلن أكون مسؤولاً بعد ذلك عن صحتك».

أعاد كاظم بك القدح وتكوم في كرسيه ثانية، وبعد هنيهة قال: «الجو حار جداً في هذه القاعة الخانقة، هيا إفتحوا النافذة..»

قفز متملقنا الشرقي نحو النافذة إلا أن صراخ كريم جمد الدم في عروقه. «لاتفتح النافذة!!»

والتفت بعد ذلك صوب كاظم بيك قائلاً: «ماذا تفعل؟... وا لله أنت كالأطفال لقد عرقت ياروحي ولا يجوز أن تتعرض إلى لفحة هواء وإلا ستمرض».

ردَ عليه كاظم بيك:

ـ لا، لم أعرق.

ـ كيف لم تعرق، وهل أنا لا أعرف ذلك.

هكذا عدل كاظم بك عن فتح النافذة بتناول كوب ماء، مدّ يده كي يملأ الكوب وإذا بكريم يؤنبه أشد تأنيب.

ـ آه ه ه! آجننت يا كاظم بيك؟.

ـ لا، لاشيء أرغب بشرب كأس ماء..

التفت كريم أفندي يمنة ويسرة وكأنه يستطلع شيئاً ما وبعدها قال:

ـ ا لله. ا لله. ما هذا التصرف، لمَ لم تقل لي أنك راغب بكأس ماء؟

غارسون كأس ماء بسرعة...

كريم أفندي هذا، كان يحاول بكل السبل لجم حركة كاظم بيك، أما كاظم بيك فكان يستمع إلى توجيهاته وهو مطأطىء الرأس، حتى أنه في بعض الأحيان يتدلع كطفل صغير.

ـ أرجوك يا كريم أفندي، أرغب في شرب قدح واحد فقط.

ـ ألم أقل لك، يا روحي يا عيني لايجوز، ألا تفكر بصحتك؟

كريم أفندي كان متناقض المواقف فقبل لحظات رفض أن تُفتَحَ النافذة والآن يقول لكاظم بيك:

ـ الجو خانق هنا والحرارة عالية، أليس كذلك يا كاظم بيك؟

ـ يوه ه ه... لا لست متضايقاً من شيء.

ـ نعم أنت متضايق فأنا أعلم بذلك، هيا افتحوا النافذة.

ارتمى متملقنا الشرقي نحو النافذة الشرقي نحو النافذة كي يفتحها مردداً عبارته التملقية والتي اعتدنا عليها.

ـ تأمرون يا سيدي.

استشاط كاظم بيك غضباً من هذا التصرف وصرخ فيه:

ـ دع النافذة، النادل هو الذي سيفتحها.

ـ على رأسي يا سيدي، تأمرون، سأجلس لاتغضبوا يا سيدي.

التفت كاظم بيك نحو كريم وسأله عن إمكانية تدخينه سيجاراً واحداً فقط.

أجابه كريم: «السيجار يجر سيجاراً، وأنت اليوم دخنت أربع لفافات، كم طلبت منك ألا ترتدي هذه البذة البنية في مناسبات رسمية

كهذه، وا لله «نبت الشعر على لساني» كم أنت عديم الذوق، وا لله لو أبتعدت عنك لمدة دقيقة واحدة فقط لقمت بحماقات جمة.

أجابه كاظم بك بلهجة طفولية مدلعنة: «لقد نسيت».

التفت كريم إلى الحضور وقال لهم: «كاظم بيك مثل الطفل، أنتم لاتعرفونه».

تدخل متملقنا الشرقي قائلاً: « أمان يا ربي، ما هذا الكلام أستغفر ا لله»

استشاط كاظم بيك غضباً وصرخ فيه: «أيها المتملق، نعم أنا مثل الطفل ولو لم يكن كريم بك وعنايته الفائقة لكنت فارقت الحياة منذ فترات طويلة».

نظر كريم إلى ساعة يده وقال:

ـ هيا يا كاظم بيك لقد حان موعد النوم.

أجابه كاظم بك لاوياً عنقه: «لنجلس قليلاً يا كريم».

ـ لايجوز لقد أصبحت التاسعة والنصف وكي نصل البيت نحتاج إلى نصف ساعة على أقل تقدير هذا يعني أننا تأخرنا ويجب أن تكون في سريرك الساعة العاشرة.

وعندما همّا بالذهاب أمسك كريم أفندي القدح كي يدلق بمحتوياته في جوفه، عند ذلك لم أتمالك أعصابي وصرخت به:

ـ ما هذا؟.. ماذا تفعل هاه؟!! إنني أراقبك هذا القدح الخامس إنك لاتعير صحتك الاهتمام الكافي هيا ضع القدح. أخذ كريم يتزلف لي قائلاً:

ـ هذا القدح فقط أرجوك.

ـ سأسمح لك هذه المرة، ولكن إياك والتكرار.

وضع يده على كتفي وسحبني جانباً وقال: «برافو لقد استطعت التمييز بين التملق الشرقي والغربي، كم من الدروس التي يجب استخلاصها عن كثب، تصور أننا لانجيد حتى التملق الغربي كم راتبك الشهري؟».

ـ مئتان وخمسون ليرة.

ـ حسناً اعتبره خمسمائة ليرة، وغداً ستصبح رئيس قسم وشوقي هذا سيصبح معاوناً لك.

أثناء ذلك دنا شوقي من الباب وأخذ يتملق كاظم بيك هذا كعادته «ا لله يطيل عمرك، كم كنا ذوي حظ وفير بمشاركتنا لمائدتك».

صرخت به: «إبتعد عن طريقي أيها المتملق، لقد أهنت التملق. هيّا إبتعد حتى لا تراك عيناي».

❒ ❒ ❒

المفتاح

قال لي إبراهيم يومها: «هيا ندخل الحانة يا حسن».

ـ لندخلها، ولكن كل ما أخشاه أن يصبنا مكروه.

ـ ماذا تقول؟ وهل نحن أطفال؟!.

ارتعبت كثيراً من دخول تلك الحانة، لأنني أخشى شيئاً واحداً، وهو أن يصبح الغبي على حظنا ذكياً.

مدخل الحانة كان مضاء ببعض المصابيح الملونة مما أضفى عليه مسحة من البهاء والجمال.

نزلنا على درج طويل يزيد عن قدر طابقين تحت الأرض. وبعد ذلك ولجنا إلى صالة فيها مجموعة من الطاولات والكراسي.

لحظة جلوسنا بدأت الفرقة الموسيقية تعزف، مما حدا بالرجال إلى أن يلقوا بأنفسهم إلى ساحة الرقص لمراقصة النساء كما يهجم مشجعي كرة القدم على الحكم وسط الملعب.

وبعدما طلبنا الفودكا من النادل اقتربت منا إحداهن وسيجارتها بفمها ترجونا إشعالها. عرفت تماماً ما سيجري لو أعطيتها القداحة، حتماً سأفتح لها المجال لأمور أخرى وهذا يعني أننا «سنتخوزق» حتماً، لذلك تظاهرت باللامبالاة والتفت إلى الجانب الآخر، أما إبراهيم فقد قام بإشعال سيجارتها، شكرت تلك السيدة إبراهيم على جميل صنيعه، بينما أجابها إبراهيم قائلاً: «لا شكر على واجب يا سيدتي».

وخزت إبراهيم على فعلته وخزة مؤلمة حتى أنه انزعج كثيراً، وقال: «يكفي هذا يا حسن».

إبراهيم هذا لم يكن ذا خبرة كافية بأمور الحانات مثلي، فأنا لم أدخلها منذ عشرين عاماً.

سأل صديقي إبراهيم: «هل يمكننا متابعة جميع فقرات هذه الأمسية؟.»

أجبته: «لِمَ لا؟ نتابعها بكل سرور».

تنهدت تلك المرأة التي أشعلت السيجارة وقالت موجهة الكلام لنا: «قاتل الله الوحدة يا سيدي».

رفعت رأسي عالياً كي لا أتورط معها بحديث، أما إبراهيم فأجابها قائلاً: «الوحدة لله يا سيدتي».

نسيت أن أعلمكم أن هذه الحانة ليست كمثيلاتها من الحانات التي يدخلها الراغب ويقضي سهره راقصة ممتعة بليرتين ونصف ثمن قدح كوكتيل. على العكس فهنا «الفتاحة» تفقد شرف مهنتها في حال عدم قدرتها على تحصيل مئة ليرة كحد أدنى في السهرة الواحدة.

اقتربت تلك المرأة من إبراهيم وقالت له: «هل أستطيع أن أهمس شيئاً ما في أن أذنك؟»

قلت بيني وبين نفسي، حسنا ها هو إبراهيم أصبح في خبر كان، إذاً من الأجدر المحافظة على نفسي.

رفعت رأسي ثانية وأخذت أتظاهر بالنظر نحو الأعلى حتى لا تلتقي عيناي بعيني أية إمرأة.

رغم كل هذه الاحتياطات فقد تناهى إلى مسامعي صوت امرأة تقول: «وجهك ليس غريباً عني. أغلب الظن أننا التقينا في مكان ما».

إلتفت إلى مصدر الصوت وإذا بي أمام عينين كئيبتين حزينتين وثغر ندي نصف مفتوح إنفرج عن أسنان ناصعة البياض. قلت لها.

ـ لا أعتقد أننا سبق والتقينا.

ـ ولكن هل أستطيع مجالستك؟

ـ إن لم تجدي مكانا آخر فإمكانك الجلوس.

جلست تلك المرأة قبل أن أسمح لها بذلك، وهذا ليس معيباً إذ أن كل شخص له خصائصه ومزاجيته، فأنا مثلاً وجهي شاحب دائماً كوجه مدمن المخدرات، أتحدث مع النساء بفجاجة، لا أعرف إن كنت سعيداً أم تعيساً.

إسمي أليس....

شكراً، وأنا إسمي حسن.

شاكرة جداً على هذه المعرفة.

في أثناء عملية التعارف اقترب النادل منا، وقبل أن أتفوه بأية كلمة سارعتني بالقول... شكراً لسنا بحاجة إلى أي شيء.

استغربت كثيراً تصرفها، كيف لا، وهذه هي المرة الأولى التي ترفض فيها: «فتاحة» طلب شيء من النادل، تشجعت وقلت لها.

ـ ولِمَ لاتطلبين ما تودين تناوله؟

ـ لا أستطيع، لأنني لم أعتد على تناول المشروبات الروحية وكل ما أرغبه هو إنسان يتفهم مشاكلي وأفصح له عما يؤرقني.

بدأت حديثها بدايةً مؤثرة للغاية، وقالت إن والدها أرمني ووالدتها يونانية وهي ولدت في تركيا. تمر بفترة عصيبة جداً، وأحبّت شاباً كان يشبهني تماماً طولاً وسحنة وجه، حتى حركاته كحركاتي. لقد افترقا، ولهذا السبب فهي تعيش الآن حياة مأساوية، وهذا السبب هو الذي دفعها بجرأة كي تجالسني وتقول لي: «إنني يا حسن لست كبقية فتيات البار «الفتاحات» اللاتي يعملن هنا، أنا أكره حياتي». كانت تتحدث بشكل عاطفي ومؤثر حتى كدت أبكي وهل توجد مثل هذه الفتاة؟ إذاً هذه هي ضالتي فوجدتها!!

ـ أرجوك يا أليس إشربي شيئاً ما.

ـ أشرب ولكن بشرط أن تعفيني من نوع المشروبات.

لقد تعلقت بي هذه الفتاة على ما يبدو، ولكني لست وسيماً لهذه الدرجة حتى أجذب أنتباه الفتيات، ولِمَ لا، أو ليس لها قلب يعشق؟.

انتقلنا إلى القاعة الثانية هناك بحثت عن إبراهيم فوجدته يحتضن فتاته وكأنهما وحيدان.

والآن ماذا تشربين؟

كوكتيل.... ما أجمل عينيك يا حسن، إنهما أجمل ما شاهدت في حياتي.

ما أروع أليس كم هي صاحبة ذوق رفيع. على كلّ فهي لاتشبه تلك الفتاة التي تعرفت عليها سابقاً، لقد كانت تقول لي باستمرار. لا أستطيع النظر إلى عينيك، لا، لا أستطيع تحملهما.

انظر يا.... كوكتيل ثانية.... لقد قتلتني بعينيك يا حسن. أطلب لنا الليكيور... وا لله أقتلك يا حسن إذا سمحت لأي واحدة غيري بالنظر إلى عينيك... فأنا امرأة غيورة جداً.

ـ يا حياتي أليس! فلأفقدهما إن شاء ا لله إذا سمحت لغيرك بالنظر إليهما هات يا كرسون قدحين وسكي.

نظرت إلى إبراهيم، عيناه ذائبتان تماماً مثل الشمعة وتلك المرأة «تخوزقه».

ـ إسمع يا حسن، لن أسمح لعينيك أن تفارقا عيني.

ـ لا، لن نتفارق يا جميلتي. ا لله لايفرق بيننا.

عيناي لايعيبهما أيّ شيء على الرغم من بعض الاحمرار وكنت أعجب بهما عندما أنظر إلى المرآة.

كرسون.... ماذا ترغبين يا حياتي؟ كونياك... أعطينا كونياك...

في تلك الحظة أخرجت أليس مفتاحاً من حقيبة يدها وناولتني إياه... خذ مفتاح شقتي يا حبيبي فأنا بانتظارك في الرابعة صباحاً. ولاتنسَ عنواني. رأس البستان، شارع سالكوم، سات شاك «الدالية السقفية» رقم /١٤/ شقة الشرف، إياك يا حسن فأنا أخشى عليك من النساء.

كرسون، الحساب من فضلك.

وضع النادل كشف الحساب أمامي... مئتان وثمانية وخمسون ليرة، إرتبكت كثيراً حتى أحسست بأن صدري سيتفجر نظرت إلى إبراهيم لم أجده فما كان أمامي إلا مصارحتها بالموقف:

يا عزيزتي أليس لا أملك سوى مئة وسبعين ليرة وكما تعلمين إن هذا المبلغ لايكفي.

غضبت أليس كثيراً وقالت:

ـ لمَ هذا المبلغ الكبير!؟ وماذا شربنا، إنهم ظلاّم تصور أنهم لايتركون الزبون ما لم يسدد ما عليه، أما أنا فوا لله لا أملك سوى خمس ليرات.

ـ لقد افتضحنا يا أليس، خذي ساعتي، فقد اشتريتها بثلاثمائة ليرة، إنها فاخرة «٢١ حجراً»، وماذا أستطيع عمله فليس أمامي مخرج آخر.

ولكن حتى ثمن هذه الساعة لايكفي لتغطية الحساب فهم لن يأخذوها بأكثر من مئة ليرة.

ـ إذاً خذي قلمي المذهب لقد اشتريته بمائة ليرة.

وحتى هذا القلم لن يغطي الحساب.

لم يبقَ أمامي سوى مخرج واحد، ألا وهو خلع أزرار قميصي الذهبية.

أخذتها أليس وذهبت وبعد خمس عشرة دقيقة عادت وأخبرتني قائلة:

ـ بقي لهم في ذمتك خمسون ليرة على كل لاتهتم سأحاول دفعها.

ـ أشكركِ يا أليس كم أنت رائعة سأعيدها لك.

ـ سأنتظرك هذه الليلة لاتنسَ، ولكن آخ ما أجمل عينيك.

رحت أتسكع في الشوارع حتى حانت الساعة الرابعة، ولذلك أخذت أسأل الحراس ـ والبوابين عن عنوان أليس ويا للأسف لم يستطع أحد منهم التعرف عليه.

وبزغت الشمس وأنا ما زلت أبحث عن بيتها حتى أنهكني التعب، لذلك قلت لمَ لا أذهب إلى المنزل ومن ثم لكل حادث حديث، وذهبت إلى البيت والقيت بجسدي المنهك على السرير ورحت في ثبات عميق فلم استفق إلا عند المساء.

خرجت من البيت ثانية للبحث عن عنوان «أليس» بحثت طويلاً، لكن دون جدوى وعند منتصف اليل التقيت بصديقي ماجد. قلت له:

ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة؟.

أجابني:

مأساة يا حسن، لقد دخلت إحدى الحانات هذا المساء وهناك تعرفت على فتاة رائعة، لكن أرجوك لا تقل بأنني غُبنت أو أيّ شيء من هذا القبيل. تصور يا حسن لقد أعطتني مفتاح شقتها، تواعدنا على اللقاء في الساعة الرابعة صباحاً.

- ما عنوانها؟.

- سالكوم - ساتشاك /١٤/ شقة الشرف.

- وما اسمها؟!!!

- أليس.

- وكم دفعت في الحانة؟!!!

- ولم أنت مستغرب هكذا؟ لا، إنها ليست كما تظن، نعم لقد دفعت أربعمائة ليرة ولكن ليباركها الله.

في أثناء حديثنا إقترب أحدهم يسألنا..

- عدم المآخذة، أين يقع زقاق سالكوم ساتشاك؟

- ولكن أيّ قسم من الزقاق تريد؟

- رقم /١٤/ شقة الشرف.

أخرجت المفتاح من جيبي، وقلت له:

خذ مفتاح الشقة إذا كنت بحاجة إليه.

بعد منتصف الليل تجمع الباحثون عن شقة الشرف. وكل منهم يحمل المفتاح بيه، وقد فاق عددهم الخمسة عشر.

❑ ❑ ❑

العصابة

راحت إمرأة شابة جميلة تصرخ على ناصية كاديكوي: «حقيبتي؟... أستجير بكم أمسكوه لقد خطف حقيبتي، أمسكوه، سيهرب.. بين هرج ومرج المتجمهرين من حولها استطاع اللص حافي القدمين من الفرار عبر درجات سلم الجسر».

لقد هرب اللص والمرأة الشابة ما زالت تصرخ متلفتة يمنة ويسرة: أمسكوه، أرجوكم أمسكوه.

لم يطل فرار اللص كثيراً فسرعان ما أمسك به الشرطي وسحبه إلى حيث المرأة المسروقة وهو ممسك بخناقه: «لمن هذه الحقيبة؟ سأله الشرطي.

شقت المرأة صفوف الكتل البشرية التي اكتظت مَن حولها وهتفت مسرورة: «إنها لي يا سيدي... آه كم أنا ممتنة لكم أشكركم، أشكركم كثيراً».

أمسك الشرطي بشعر اللص بقوة كي لا يفلت من يده، أما اللص فقد كان مرتدياً بنطالاً عسكرياً. وكان فخذاه الوسخان باديين للعيان.

التفت الشرطي نحو المرأة الشابة الجميلة قائلاً: «لطفاً يا سيدتي ستذهبين بصحبتنا إلى مركز الشرطة».

ـ ولمَ الذهاب؟..

«هذه حقيبتي والجميع يعرف ذلك، حتى أنهم شاهدوه عندما خطفها من يدي».

ـ هدئي من روعك يا سيدتي، ستذهبين معنا كي نستمع إلى أقوالك وندونها في محضر رسمي ونحيل اللص بموجبه إلى المحكمة.

دخل الشرطي مركز الشرطة وهو ممسك باللص من ذراعه ومن خلفهما دخلت المرأة الشابة.

وبعد أن استمع الضابط إلى أقوال المرأة الشابة نظر وهو يستشيط غضباً إلى ذاك اللص الذي انبعثت منه رائحة الجيفة العفنة.

ـ ويحك، ألا تخجل من نفسك؟ لم لاتعمل يا حمار.. لمَ لا تعمل؟. لماذا تسرق؟.

رفع اللص رأسه رويداً رويداً بعد أن استمع لكلمات الضابط وهو مطأطىء الرأس وقال: «وهم برأيك ما يفعلون؟»

ـ اصمت الآن..!

إلتفت الضابط نحو المرأة الشابة الجميلة وسألها: «سيدتي العزيزة هل لك أن تعلمينا عن محتويات الحقيبة».

ـ بعض النقود.. بودرة، مرآة، حمرة خدود وشفايف.

ـ وكم كانت هذه النقود؟

صرخت المرأة الجميلة الصامتة بأعلى صوتها عندما مد الضابط يده إلى داخل حقيبتها قائلة:

ـ لاتعبث بمحتويات حقيبتي أرجوكم هناك أغراض خاصة بي ولن أسمح لأحد العبث بها.

أفرغ الضابط محتويات الحقيبة على الطلولة حيث وجد بالإضافة بما صرحت به بعض القطع النقدية المعدنية ومائتي دولار، رفع الضابط رأسه ناظراً صوب المرأة الشابة الجميلة وسألها:

ـ من أين حصلت على هذه الدولارات؟.

ـ أنا لست مدعية على أحد... أعطوني حقيبتي وأذهب...

ـ أسألك عن الدولارات؟.

ـ حسناً... حتى حقيبتي لا أريدها، خذوها ودعوني أنصرف.

ـ لاتنصرفي، قولي من أين حصلت على الدولارات.

طأطأت المرأة الجميلة الشابة رأسها وقالت: «أخذتها من مدام لينا هذا الصباح».

رفع اللص رأسه ورمق الضابط بنظرة ملؤها السخرية والاستهزاء.

- وأين هي هذه المدام؟.

صرحت المرأة عن عنوان المدام لينا بصوت هامس.

ركب الضابط واللص والمرأة الشابة يصحبهم الشرطي سيارة الشرطة واتجهوا نحو شقة لينا.

وهناك كانت الفضيحة حيث وجد الضابط في الغرفة الأولى شخصين بوضع غير طبيعي. كذلك في الغرفة الثانية والثالثة وحتى السادسة.

توجه الضابط بحديثه إلى لينا قائلاً:

- إذاً أنت يا مدام التي نبحث عنها منذ ستة أشهر، ولكن من أين حصلت على هذه الدولارات؟.

- من رضا بيك.. رضا بيك أحد الزبائن.

أُفرِجَ عن جميع الرجال الذين ضبطوا بتهمة الدعارة لأنهم رجال، أما النساء فتم تحويلهن إلى المشفى لإجراء فحوصات طبية لهن لأنهن نساء.

ركب الجميع ومعهم مدام لينا في سيارة الشرطة واتجهوا نحو بيت رضا بيك. أما رضا بيك فقد كان منهمكاً بتنفيذ بعض الأعمال العمرانية في منزله.

- ماذا تفعل يا رضا بيك؟ سأله الضابط أجاب:

- لاشيء.

- كيف لاشيء، وماذا تفعل إذاً هذه الورشة هنا!؟ تقوم بأعمال بناء مخالفة يا رضا بيك هاه!؟.

رفع اللص رأسه ونظر إلى الضابط راسماً على شفتيه إبتسامة تشوبها السخرية والاستخفاف.

وبعد إجراء الضبط اللازم بحق رضا بيك، كونه قام ببناء مخالف، سأله الضابط:

- من أين لك هذه الدولارات يا رضا بيك؟.

ـ أخذتها من علي بيك!

نظراً لازدياد عدد الموقوفين ولصغر حجم السيارة إتصل الضابط بمديرية الأمن طالباً منهم إرسال سيارة كبيرة.

ركب الجميع ومعهم رضا بيك السيارة واتجهوا نحو شقة علي بيك وهناك سأله الضابط.

ـ هل أنت الذي أعطى رضا بيك هذه الدولارات؟.

ـ نعم...

ـ ولماذا؟.

ـ أعطيته هذه الدولارات لقاء الحديد الذي باعني إياه.

التفت الضابط نحو رضا بيك وقال: «حديد بيتون يا رضا بيك؟. من أين لك الحديد؟. هل لديك رخصة لبيع الحديد، لا، هاه، إذاً تتاجر بالحديد بشكل غير قانوني».

التفت ثانية نحو علي بيك وسأله: «ولكن لم تقل من أين حصلت على هذا المبلغ؟».

ـ لقد كسبتهم البارحة عندما لعبنا في بيت حسان، رفع اللص رأسه ونظر إلى الضابط مبدياً من خلال بسمته المرسومة على شفتيه سخطه وسخريته.

ركب الجميع وبرفقتهم علي بيك والسايرة واتجهوا نحو شقة حسان بيك... وهناك كانت المقمرة الحقيقية حيث تناثرت عشرات الألوف من الليرات فوق الطاولة المغطاة بالقماش الأخضر ومن حولها جلس ستة أشخاص.

ألقي القبض فوراً على الرجال الستة وأحيلوا إلى مديرية الأمن. أما حسان بيك فقد توجه إليه الضابط بالسؤال التالي: «من أين حصلت على هذه الدولارات؟».

ـ من نوري، نوري مهندس ميكانيك القاطرات، أخذتهم منه بعد عودته من الولايات المتحدة الاميركية.

ركب الجميع ومعهم حسان بيك سيارة الشرطة وتوجهوا إلى شقة نوري المهندس. في بيت نوري تم ضبط عشرة كيلوغرامات هيروين، أما نوري فقد اعترف بأنه أخذ الدولارات من إحسان، أما إحسان فقد ضبط متلبساً في مغارة خاصة جبلية للهيروين.

ـ ممن حصلت على هذه الدولارات يا إحسان.

ـ من ريزيان.

ـ ومن يكون هذا؟

ـ يعمل في تهريب الملابس النسائية من بيروت.

رفع اللص رأسه ونظر إلى الضابط مطلقاً ضحكة ملؤها السخرية والاستهزاء. ركب الجميع ومعهم إحسان واتجهوا نحو شقة ريزيان. وهناك اعترف ريزيان بأنه حصل على هذه الدولارات من نيفين ثمناً «للبكيني» الذي جلبه لها من بيروت. إلا أن هذه السيدة، لم تكن في بيتها لأنها لم تصل من باريس وروما.

رفع اللص رأسه مطلقاً ضحكة غريبة. استشاط الضابط غضباً وقال له:

كفاك ضحكاً أنت أشرف منهم.

وبعد أن قضى اللص فترة الثمانية أشهر في السجن أخذ يعمل في أعمال شرعية، إلا أنه كان يفر عندما تصادفه إمرأة تحمل حقيبة مزركشة بيدها.

❒ ❒ ❒

البيت الحدودي(*)

كان ذلك في اليوم الثاني من انتقالنا إلى المنزل الجديد، إذا استوقفني شيخ هرم يقطن في الجانب الأيمن من بيتنا، قائلاً: «ليتكم لم تستأجروا هذا المنزل؟...»

استغربت كثيراً حديث هذا الكهل فرددت عليه قائلاً: «عندما يسكن المرء في منزل جديد يقول له الجيران «منزل مبارك»، فماذا تقصد بهذه التمنيات الغريبة؟»

لم يهتم جاري بما قلت، بل تابع حديثه الفظ: «تقتضي علاقة الجوار أن أرشدك وأنصحك بالابتعاد عن هذا المنزل لأنه مقصد للصوص».

ـ ولمَ منزلنا بالذات دون جميع المنازل الأخرى، هاه؟.

تركته يثرثر بكلماته واتجهت صوب البقال كي أشتري علبة سجائر فقد استطيع لجم جام غضبي، وهناك سألني البقال عن سبب غضبي، قلت له:

بقرب منزلنا يسكن رجل هرم وخرف، قال لي بينما كنت أمرّ من أمام منزله أن بيتنا مقصد للصوص وكان علينا أن لا نستأجره، بربك قل لي أليست هذه الحماقة بعينها.

أجابني البقال: «نعم جارك محق في ذلك، وهو يريد أن يعلمك بوضع المنزل، فعلاً كان من الأفضل أن لا تستأجروا هذا المنزل بالذات».

انزعجت من البقال كثيراً، فلم أنتظر حتى يتم حديثه، فخرجت مباشرة وبقيت يومها معكر المزاج.

(*) أعاد الكاتب الراحل عزيز نسين نشر هذه القصة ثانية قبل وفاته في مجموعة أسماها «ألا يوجد في بلدكم حمار». ـ ما اختاره عزيز نسين من قصص عزيز نسين ـ المترجم.

في المساء أتى لزيارتنا جارنا القاطن في الجانب الأيسر من بيتنا، واستمرت سهرتنا حتى منتصف الليل، وعندما هم بالانصراف قال لي: «منزلك مبارك إن شاء الله، ولكن يجب أن تكون على بينّة من أمرك، إن هذا البيت مقصد للصوص».

لاحظت زوجتي مدى غيظي وحنقي، فحاولت أن تخفف عني قائلة:

ـ أوه ـ وه، ألا تدري أن أصحاب المنازل لديهم ألف حيلة وحيلة كي يدفعوا المستأجر للإخلاء، ولعل هذه الحيلة واحدة منها، هدفهم إدخال الرعب في قلوبنا وبذلك نخلي المنزل وبدروهم يعملون على تأجيره لأحد أقاربهم أو أصحابهم.

.... بهذه الكلمات استطاعت زوجتي أن تهدىء من روعي.

لقد وترت هذه الحادثة أعصابي حتى أنني بقيت فترة طويلة أحاول أن أغفو ولكن دون جدوى، ثم غفوت، كم دام ذلك، لا أدري كل ما أعرفه أنني استيقظت على صوت خربشة غير طبيعية، سحبت المسدس من تحت الوسادة وقفزت في الظلمة الحالكة وأنا أصرخ بصوت عالٍ...

ـ لاتتحرك من مكانك وإلا أطلقت النار.

ولكن المصيبة التي اعترضتني تتجلى بعدم معرفتي مكان مفتاح الضوء، أخذت أتحسس جدران غرفة النوم لكن كل جهودي باءت بالفشل، وبينما كنت أعمل جاهداً في سبيل إيجاد المفتاح وإذ بقدمي ترتطم وأسقط على الأرض والمسدس يسقط من يدي، ولكن كيف سقطت وبماذا تعثرت قدمي؟.

قهقه اللص بصوت مرتفع وأجش، فارتعبت كثيراً من شدة صوته، لملمت شتات شجاعتي المتبقية وقلت له: (« ولك» دعني أراك إذا كنت رجلاً ولا تظن أنني خائف منك).

أجابني قائلاً: «من المؤكد أنك تبحث عن مفتاح الضوء، لايهم جميعكم هكذا، ولست أولهم».

صرخت بأعلى صوتي علّني أستطيع إخافته:

ـ «ولك» مع من تورطت، ماذا سأفعل بك هاه؟.

ـ لا، لا، لا أعرف، ولكن إذا كنت بحاجة لمساعدتي، إسمح لي كي أنير لك الغرفة.

ـ تك....

وإذا بالنور يعم جميع أرجاء الغرفة، أما أنا فقد كنت منبطحاً تحت الطاولة وزوجتي كانت مختبئة تحت السرير، أما اللص فقط كان طويلاً جداً فلو وقفت على قدمي لما أدخلت الرعب إلى قلبه.

ولذلك قلت بيني وبين نفسي الوسيلة الوحيدة هي أن اصرخ بصوتٍ خشن وقوي: «ولك» من أنت؟.

أجابني: «لص».

ـ قلت: «لا، لن تستطيع إرهابنا، ولم نترك المنزل ولن نتركه وأنت لست بلص».

أجاب: «الآن ستعرف إن كنت لصاً أم لا.

ـ أخذ ذاك اللص بالتجوال داخل المنزل وكأنه يعرف كل تضاريسه وبعبث بأغراضه يقلبها ويرميها حيث يشاء، أما الحاجات التي تعجبه فكان يجمعها في مكان واحد كي يأخذها.

وفي أثناء ذلك قال لي:

ـ حسناً، فعلتم، إذ خصصتم هذه الغرفة للنوم، لكن المستأجر السابق خصصها للجلوس، كذلك الذي قبله.

قلت له: «أظن أنك نسيت، وأنت تسرق حاجياتنا أنني سأقدم شكوى ضدك».

أجابني لامبالياً حتى أنه لم يكلف نفسه عناء رفع رأسه: «إفعل ما تشاء ولكن لاتنسَ بأن تبلغهم تحياتي».

بالتأكيد سأقدم شكوى ضدك ولكن كل ما أخشاه أن تنتهز الفرصة وتهرب.

ـ لا، لن أهرب.

ـ أقسم لك بأنك ستهرب بعد ما جمعت مـا جمعتـه، لذلـك سأربطك. وفيما بعد أستطيع الذهاب مطمئناً إلى مخفر الشرطة.

تجمّع الجوار على صوت هرجنا ومرجنا ودخلوا المـنزل دون أن يعـيروا ما جرى أدنى إهتمام، بل الأنكى من ذلك أن بعضهم أخذ يتهامس: «لـص آخر دخل المنزل».

ـ آه، ه، ه... نعم لـص، هيـا لنتعـرف عليـه، بعـض الجـوار اسـتطاع التعرف عليه مباشرة لذلك بدأ السؤال عن حاله وأحواله.

طلبت من الجوار مساعدتي:

ـ ساعدوني يا إخوان كـي أربطـه بـالحبل، وأذهـب إلى مركـز الشـرطة وأتقدم بشكوى ضده.

أجابني اللص: «والله أنتم أحرار في أن تتقدموا بشكوى ضـدي، ولكـن ما أود أن أقوله هو لاتتعبوا أنفسكم.

جلبت زوجتي الحبال المخصصة لنشر الغسيل وأخذنا نشده إلى الكراسي، كل هذا دون أن يمانع وبعدها أوصدنا البـاب واتجهنـا إلى مخفـر الشـرطة. وهناك سألنا الضابط عن موقع المنزل وعندما أبلغته عن المكان قال:

ـ هاه ـ ـ ـ اه !!.... إذاً ذاك المنزل؟

قلت له: «نعم ذاك المنزل».

أجاب: «نأسف عن التدخل لأن منزلكم لايقع ضمن البقعـة الجغرافيـة المسؤولون عنها».

ـ حسناً وما العمل؟ وهل قمنا بربطه عبثاً.؟.

أجاب: «لو سكنتم في المنزل المجاور لكنا على أتم الاستعداد لتقديم كل المساعدات الضرورية، إن منزلكم هذا يقع ضمـن صلاحيـات البوليـس. لقـد كان مركز البوليس بعيداً نوعاً ما لذلك لم نصل إليه إلا مع انبثاق الشفق.

وهناك سألني الضابط المسؤول عن موقع المنزل. وعندما أجبت عن مكان البيت قال: «هـ ـاه ه ه..!!! ذاك المنزل؟».

ـ قلت له: «نعم ذاك المنزل».

أجاب: «أخ لو كان منزلكم هو المنزل المجاور لكنت قدمت المساعدة الضرورية، ولكن مع كل الأسف منزلكم هذا خارج حدود صلاحيتنا.

تدخلت زوجتي بالحديث قائلة: «واه، واه وماذا سنفعل بذاك الذي ربطناه».

سألت الضابط: «حسناً وماذا باستطاعتنا أن نفعل؟ أرشدنا بالله عليك».

أجابني مشكوراً: «منزلكم يقع ضمن حدود صلاحيات الجندرمة».

اقترحت زوجتي الذهاب إلى البيت خشية أن يصاب ذاك الرجل بمكروه أو قد يكون فارق الحياة وبذلك نكون قد ارتكبنا جناية القتل.

دخلنا المنزل فوجدناه جالساً بمكانه:

سألته:

ـ كيف حالك؟.

ـ جيد، ولكني جائع جداً.

جهزت زوجتي مائدة الطعام لكن للأسف لم يكن اللص يحب «البامياء» لذلك ذهبت إلى القصاب وجلبت له قطعة لحم «بفتيك» وحضرتها وقدمتها للص. وبعد ذلك خرجنا متوجهين نحو مركز الجندرمة وعندما وصلنا إلى هناك شرحت الموقف للضابط إلا أنه استغرب وقال: «هاه ه ه !! إذا ذاك المنزل».

وكأن جميع الجهات الأمنية تعرف قصة منزلنا.

ـ إن بيتكم لايقع ضمن حدود صلاحياتنا بل يقع ضمن حدود صلاحيات البوليس.

ـ قلت له مستغرباً:

ـ عجباً يا سيدي! أيعقل ذلك؟ لقد ذهبنا إلى مركز البوليس وقالوا أن منزلنا يقع ضمن حدود صلاحياتكم. وأنتم تقولون العكس، لكنه يقع ضمن صلاحيات جهة ما دون ريب.

أخرج ضابط الجندرمة الخارطة من خزانته الحديدة وبسطها على المنضدة وقال: «انظر... ولكن هل تفهما بالخارطة؟».

هذا الرقم (١٤٠) يدل على السهل وهذا (٢٠٨) يدل على التلة، من هنا تمر حدود صلاحياتنا الادراية، ولو كان منزلكم أبعد بمترين فقط نحو الغرب لوقعَ ضمن حدود صلاحياتنا.

قلت له راجياً: «يا عيني، يا روحي كل هذا من أجل مترين؟. ماذا سيحصل لو غضضتم البصر قليلاً؟.

أجابني: «ماذا سيحصل هاه؟ أنتم لاتعرفون ماذا سيحصل ولكن نحن نعرف تماماً. انظر هنا، هذا موقع المنزل، إنه يقع تماماً علىالخط الفاصل بين حدود صلاحياتنا وحدود صلاحيات البوليس، هل فهمتما؟ يعني أن حديقة المنزل ضمن صلاحياتنا ولكن عملية السرقة كما شرحتم تمت في غرفة النوم.

لم يكن أمامنا إلا التوجه ثانية إلى مركز البوليس، ولكن طلبت زوجتي الذهاب إلى المنزل أولاً للاطمئنان على اللص.

سألته عندما وصلنا: «كيف حالك؟».

ـ عطشان، إسقوني...

وبعد أن شرب الماء وأطفأ ظمأه قال: «سأرفع عليكم دعوى حجز حرية وهذا ليس من حقكم».

قلت له: «حسناً يا أخي ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل إذا كان بيتنا يقع على الخط الحدودي».

ـ أجيبه!.

أطلق اللص تنهيدة طويلة وأردف قائلاً: « ألم أقل لكم منذ البداية اتركوني وشأني. وإياكم وإلا سأرفع عليكم دعوى وأجرجركم في المحاكم. قلت له:

ـ إصبر علينا قليلاً، با لله عليك ساعدنا هذه المرة كي نذهب إلى مركز البوليس مرة أخرى.

ـ إذا كنتما راغبان بالذهاب فعليكما بذلك، ولكنني أعرف هذا الشيء أكثر منكما. في البداية يجب إتخاذ القرار اللازم حول تبعية هذا المنزل أو تغيير حدود المنطقة كلها. وعند ذلك يلي ضرب...

ذهبنا إلى مركز البوليس ثانية وهناك بسط الضابط الخارطة على الطاولة وقال:

هذه حدود صلاحيات الجندرمة يعني أن الحديقة تابعة لهم،.... أي أن قسم من المنزل يقع ضمن حدود صلاحياتنا الادراية.

سررت كثيراً من حديث الضابط، لذلك قلت له على الفور:

ـ إذاً غرفة النوم تابعة لكم، وهكذا فالمشكلة حصرت بمسؤوليتكم عنها أليس كذلك؟.

ـ نعم، نعم ولكن هل لديك دليل أن السرقة تمت في غرفة النوم، وهل دخل اللص إلى غرفة النوم من الجو دون المرور بالحديقة وكما تعلم فإن الحديقة تقع ضمن صلاحيات الجندرمة، هذه القضية ليست جديدة يا عزيزي والمسألة قيد الدراسة، وفيما بعد سنرى تبعية المنزل لأية جهة أمنية. وبعد ذلك سنقوم بإجراء اللازم.

في أثناء عودتنا إلى المنزل استوقفني جاري الخرفان وسألني: «الحمد لله على سلامتكم، سمعت أن لصاً سطا على منزلكم.

ـ نعم سطا.

ـ ألم أقل لك أن هذا المنزل مقصد للصوص، ولا أحد يستطيع السكن فيه ولهذا السبب بالذات فأجرته رخيصة، حتى صاحب المنزل لايستطيع السكن فيه، لذلك قرر أن يهدم قسماً من المنزل ويرجع مترين نحو الخلف، في هذه الأثناء ظهرت على الساحة واستأجرت البيت، وبذلك عدل عن فكرته.

في أثناء حديثنا تدخلت زوجته قائلة: «الذنب ليس ذنبك، بل ذنب صاحب البيت فهو لايحسب حساب الخط الحدودي، عندما قام ببناء المنزل، وهل يعقل أن يبني إنسان عاقل منزلاً كهذا؟

ولكن وبما أننا دفعنا لصاحب المنزل سلفة لمدة عام فلن نخلي المنزل الآن.

فككنا وثاق اللص وجلسنا سوياً لتناول العشاء، وبعد ذلك طلب اللص السماح له على أن يعود ثانية.

لقد أصبح في منزلنا أربع أو خمسة لصوص زوّار دائمين. وبتنا نقوم ببعض الأعمال المنزلية معاً كي لا يأتي إلينا لصوص آخرون.

ولكن لا أدري ماذا سنفعل؟!

إمّا أن نبقى هنا حتى نهاية العام، ونصبح في المنزل ثمانية أشخاص أو نجد حلاً لهذه المشكلة العويصة.

وبعد انتهاء دراسة وضع المنزل سوف أرفع دعوى على هؤلاء اللصوص. ولكن مجرد التفكير بهذا الشيء معيب جداً بالنسبة لي كيف لا، وقد تناولنا الخبز والملح سويةً. لا، حتى لو تحملت كل المصاريف وحدي.

□ □ □

كيف يجب أن يكون رئيس البلدية

تتم التحضيرات لانتخاب رئيس البلدية في إحدى المدن الصغيرة، ويتنافس فيها ممثلا أقوى حزبين، أما باقي المرشحين فقد كانوا خارج ظل المنافسة.

لقد انتهت الحملات الدعائية التي كانت تجرى في المحلات والمنازل والمقاهي ولم يبق سوى المقابلات المباشرة مع المتنافسين.

بشير أفندي كان أحد المتنافسين وهو الذي خدم في الجيش برتبة عالية وبعد ذلك عمل بصفة مدّع عام قرابة ثلاثين عاماً.

أما المتنافس الآخر فهو البقّال كاظم أفندي، مختار المدينة منذ سنوات طويلة رجل أميّ، يجيد القراءة قليلاً، والكتابة لا يجيدها إطلاقاً، أما حسابات دكان البقالة فكان ـ يقوم بها من خلال مجموعة إشارات ومصطلحات وضعها لنفسه.

ساحة المهرجان تقع مقابل مركز الحكومة في المدينة، حيث جهزت المنصة ووضع عليها إبريق ماء وكأس.

وبما أن الأجواء السائدة بين الحزبين اللذين يمثلهما المتنافسان كانت جيدة لذلك دخل بشير أفندي وكاظم أفندي متأبطاً كلّ منهما ذارع الآخر.

وتجمع أهالي المدينة والقرى المحيطة في الساحة. وبما أن بشير أفندي كان معروفاً من قبل الجميع فإنه كان على يقين تام من أنّه سيصعد المنصة أولاً. فتقدم من كاظم أفندي قائلاً:

ـ تفضل يا كاظم أفندي كي تلقي كلمتك أولاً:

أجابه كاظم أفندي:

ـ أستغفر الله ومن أنا حتى أصعد أولاً، تفضل واصعد يا بشير أفندي.

استمر بشير أفندي كرئيس بلدية طيلة فترة ثلاث دورات متتالية وهذا ما جعله يتدلل قليلاً، إلا أنه صعد المنصة في نهاية المطاف، وبدأ كلمته مباشرة ودون أي اضطراب وهذا نابع من طبيعة عمله في محكمة المدينة سنوات طويلة.

«أيها الأخوة المواطنون، كان لي الشرف إذ أنني كسبت ثقتكم العزيزة مدة ثلاث دورات ولكي أحافظ على هذه الثقة جهدت أن أكون أهلاً لهذه المهمة التي أوليتموني إياها والآن ونحن ندخل مرحلة إنتخابية جديدة لا أقول لكم إنتخبوني ولا أصر على ذلك، وما أود قوله أنني متعب جداً وفي نفس الوقت مشغول جداً ولدي الأعمال الخاصة ولكنني رشحت نفسي ثانية خدمة لمواطنيّ الأعزاء، ولهذا فالقرار قراركم في اختياري أو اختياره، رمق كاظم بيك بنظرة جانبية، ولكن عليّ توعيتكم بسمات رئيس البلدية، وسأقوم بذلك قدر طاقتي الشخصية.

إن رئاسة البلدية مهمة شاقة ومرهقة لذلك يجب أن لايكون رئيس البلدية هرماً، ولايضع طقم أسنان - كاظم أفندي كان يكبر بشير أفندي أربعة عشر عاماً أصلع الرأس ويضع طقم أسنان - يعني رئيس البلدية يجب أن يكون عمره بحدود الخمسين عاماً - بشير أفندي كان في الخمسين من العمر - إياكم أن تنتخبوا شخصاً لايفقه شيئاً في القانون أو النظام فيعطل أعمالكم - في المدينة كلها لايوجد غير بشير أفندي رجل قانون - أنا لا أقول إنتخبوني ولكن يجب أن تحسنوا الاختيار، لاتنتخبوا شخصاً لايجيد القراءة والكتابة!. ولأن رئيس البلدية يذهب إلى كل مكان، يجب أن يكون بنطاله مكوي، إياكم أن تنتخبوا رجلاً لايضع ربطة عنق، وإلا ستفقدون شرف مدينتنا وكرامتها - في المدينة كلها لم يكن سوى بشير أفندي من يرتدي بنطالاً مكوياً، ويضع ربطة عنق. إياكم أن تنتخبوا شخصاً لايعتمر قبعة لبادّية. خلع قبعته اللبادّية وعرضها على الحضور - وإلا ستهينوننا - في المدينة كلها لم يعتمر القبعه اللبادّية سواه - أنا لا أذيع عليكم كي تنتخبوني ولكن عند إختياركم رئيس البلدية يجب أن تكون سماته كما شرحت لكم».

أخذ القرويون الذين ملؤوا الساحة يتهامسون عندما كان بشير أفندي ينزل من على المنصة: «نعم يقول الصدق».

ـ إنه محق تماماً.

بعد ذلك صعد كاظم أفندي المنصة وبدأ كلمته قائلاً:

«بشير أفندي أوضح لكم كل شيء ـ مشيراً بيده نحو بشير أفندي ـ إن أنياب رئيس البلدية يجب أن تكون مغطاة بصفيح من الذهب ـ أنياب بشير أفندي كانت مغطاة بالذهب، تابع قوله مشيراً أيضاً بيده نحو بشير أفندي ـ رئيس البلدية يجب أن يكون له عينان زرقاوان...»

أما القرويون فقد كانوا يقهقهون بأعلى صوتهم، تابع: «رئيس البلدية يجب أن يكون شخصاً أقف على يساره».

استشاط بشير أفندي غيظاً وغضباً. تابع: «كذلك رئيس البلدية يجب أن يحمل مثل ذلك العكاز ويسند على أرنبة أنفه نظارتين».

كان القرويون يقهقهون بشدة من حديث كاظم أفندي.

«رئيس البلدية يجب أن يكون إسمه بشير..»

نزل كاظم أفندي من على المنصة أما الحضور فكانوا لايستطيعون التماسك من شدة الضحك. أما بشير أفندي فقد كان يقضم شاربيه بأسنانه من شدة الغيظ.

استمر المهرجان الانتخابي في اليوم الثاني، أما الجماهير المحتشدة والتي زاد عددهم عن الضعفين، فانقسمت إلى قسمين، الغالبية تقف إلى جانب بشير أفندي.

تخلى بشير أفندي هذا عن المواقف اللينة لذلك أخذ ينشر الغسيل الوسخ لمنافسه. وهذا ما جعل الأحاديث كلها تدور حول أملاك كاظم أفندي.

اعتلى بشير أفندي المنصة متوتراً من حديث البارحة ولذلك بدأ حديثه مباشرة:

«أيها المواطنون:

إنني مجبر على الافصاح عن جميع القضايا، هل هناك أحد لايعرف ما قدمه كاظم أفندي طيلة فترة مخترته. عندما يزور مدينتنا أي ضيف كبير

فإلى أين يذهب أولاً ،من المؤكد أنه سيذهب إلى بيت المختار كاظم أفندي ولكن لماذا؟ أنتم جميعاً تعرفون السبب. هل تذكرون ما جرى في العام الماضي عندما استضاف ثلاثة زوّار، هنا أشفقت على أمينة يومها! أليس هو الذي داعبها في البستان وترك زوّاره...»

دبت همهمة واضحة بين القرويين: «صحيح تماماً».

ـ نعم صحيح ما يقوله.

«أيها المواطنون:

هل تعلمون ماذا فعل بجلود الأغنام التي أخذها في عيد الأضحى الماضي؟ إن هذا الرجل الذي يود أن يصبح رئيساً للبلدية تزوج من أربع نساء بعقد غير قانوني. هل هناك من لايعرف ذلك؟..»

إرتفع صوت القرويين قليلاً: «حلال على الشاطر».

«أيها المواطنون:

كلكم يعرف تماماً أن هذا الرجل لم يكن يملك سوى دكان بقالة فقط قبل أن يصبح مختاراً وخلال عشر سنوات كلكم تعرفون أنه يمتلك نصف هذه المدينة..»

ارتفعت أصوات القرويين ثانيةً: «كم هو بارع هذا المختار».

«أيها المواطنون:

إن الحديث الذي أود قوله لم ينته بعد وهناك الكثير ولكن لايجوز الاستمرار أكثر من ذلك، ولذلك أنتم اصحاب القرار في الاختيار».

اعتلى كاظم أفندي المنصة بعد إنتهاء التصفيق الحاد وبدأ خطابه:

«صحيح تماماً كل ما قاله بشير أفندي إنه مدّع عام منذ ثلاثين عاماً ولكنه لايملك قطعة أرض صغيرة ولا حتى زوج ثيران!... إنه إنسان شريف جداً وإذا نزل عنده أيّ زائر لايملك مكاناً يجلسه فيه،أو سريراً ينام عليه أما إذا كنتم تودون أن تعرفوا عني ما أستطيع القول أنني لم أكن أملك أي شيء قبل أن أصبح مختاراً، أما الآن و لله الحمد فأملك قطعة أرض تبلغ

مساحتها/٢٥٠/ دونماً وقبعة لبادّية.. لديه نظارتان وربطة عنق، أما أنا فإنسان أمي لا أجيد القراءة ولا الكتابة. هذا ما رغبت في قوله وعليكم الإختيار».

انتهى المهرجان الخطابي وتفرق الجميع أما الإقتراع فسيبدأ بعد يومين.

اجتمع أصدقاء المختار في دكان بقاليته: «ماذا فعلت يا كاظم أفندي؟ ماهذا الكلام الذي قلته؟ لقد جعلت منه ملاكاً طاهراً، ولا يملك شيئاً وأنت تعرف تماماً أن لديه القدرة أن يزنك بالذهب.

ضحك كاظم أفندي وقال: «لنر ماذا سيحصل في الانتخابات؟»

ـ ياهوه... ألم يكن لديك مائتي رأس ماشية، والدونمات الثلاثون التي ورثتها عن والدك، وزوج ثيران. ألم يكن لديك كل هذا قبل أن تصبح مختاراً، وأمينة التي أشفق عليها أليس هو الذي هتك عرضها.

ـ هدىء من روعك ..لنر ماذا سيحصل في الانتخابات .

انتهت الإنتخابات وتم فرز الأصوات. ولم يستطع بشير أفندي رئيس البلدية السابق الحصول على ربع الأصوات التي حصل عليها المختار. وهكذا أصبحت نتائج الانتخابات الشغل الشاغل لأهل المنطقة .

ـ يلزمنا تعبيد الطريق وتمديد أنابيب المياه، كذلك يلزمنا بذار وماشية بشير أفندي ماذا فعل طيلة هذه السنوات ماذا استفدنا من علمه، إنه إنسان غير ماهر!. أما المختار، فهو رجل كبير لاشك ولايستطيع عمل شيء ولكنه إنسان مدبر.

بعد تلك الإنتخابات تغيرت أساليب الدعاية الإنتخابية ولذلك أخذ المرشحون يعرفون أنفسهم على النحو التالي :

«أيها المواطنون :

أملك مائة رأس من الماشية ،أربعة أزواج من الثيران، وأربع نساء، وخمس مائة دونم أرض، وكل أسبوع أداعب امرأة وأهتك عرضها، ببراعتي حصلت خلال شهر على كل ذلك».

□ □ □

الطنجرة ذات المزمار

فرحت كثيراً عندما قرأت في إحدى الصحف خبراً عن إفتتاح معمل الطناجر ذات المزمار :كيف لا؟!... وبناء الصناعة المحلية مهمة ملقاة على عاتق كل واحد منا .

كنا يوم ذاك في حفل لاستقبال مجموعة من الصحفيين. كانوا يستقبلون المدعوين من مدخل إدارة المصنع أما السيد المدير فقد كان يخص الصحفيين بخروجه من خلف طاولته وبوجه بشوش لملا قاتهم عند باب ردهة مكتبه.

كان يداعبهم ويمازحهم جاهداً لكسب ودهم، وكان يحاول تأمين الأماكن المريحة لهم.

لقد فرحت كثيراً، لقد تطورت وتقدمت صناعتنا حتى أصبح لدينا مصنع لإنتاج الطناجر ذات المزامير.

وزّع السيد المدير العام بنفسه السجائر على كل منّا وبعد انطفاء السجائر ضغط الجرس ودخل رجل ذو مظهر أنيق جميل الطلعة، نظيف الثياب قال له :

- إسأل السادة ماذا يودون أن يشربوا وإلتفت إلينا قائلاً:

- لدينا عصير الفريز الطازج.

كنا قرابة ثلاثين صحفياً، أخذ يحتسي بعضنا الشاي وبعضنا الآخر القهوة أما الآخرون فعصير الفريز.

أجرينا اتصالاتنا الهاتفية من المطار حال وصولنا المدينة، ومن هناك ذهبنا إلى المكتب الصحفي المحلي، وبعد ذلك ولكي نطور من أساليب الاستفادة من الفرص المتاحة، قمنا على عجل بتنفيذ بعض القضايا الهامة.

رحنا نتناقش ونتضاحك، لقد كنا يومها على أعلى مستوى من الفطنة والدهاء ولذلك ذهبنا إلى صالون الحلاقة، حتى يعاد لوجوهنا شكلها الطبيعي.

طرح أحد الأصدقاء مشكلته الخاصة، والمتعلقة بالخراج الذي يؤلمه في ثديه! اقترح عليه مهندس المصنع إستخدام دواء ادعى أنه مفيد لهذه الحالات.

في أثناء هرجنا ومرجنا دعانا السيد المدير إلى مائدة الغداء التي كانت تحوي كلّ ما لذّ وطاب، أطلب وتمنّى من بيض الكبش لبيض السمك، ومن لبن الناقة حتى لبن العصفور ومن لحم الطيور للحم الغوريلا.

سررنا كثيراً من هذه المأدبة، ضحكنا كثيراً حتى كاد أحد الأصدقاء يختنق بعظم الدجاجة، بعد الطعام احتسينا القهوة ودخنّا السجائر، بعض الصحفيين المتخصصيين بالقضايا الاقتصادية استأذنوا بالانصراف لانشغالهم في أماكن أخرى وبما أننا نفهم في أمور شتى فقد تحدثنا في شؤون الموسيقى والأسلحة النووية والمسرح والطيران، عند الخامسة مساء دعانا السيد المدير إلى البوفيه. كانت كاملة لاينقصها شيء سوى إنعدام الشهية التي تبددت بسبب التخمة، لذلك استطعنا استعادتها عبر المشروبات الروحية.

الفودكا البـاردة، عصير الفواكه الطازجة، مع اللكيلور، العرق مع الفواكه المجففة، شتى أنواع الجبنة، البيرة المبردة، الويسكي ومشروبات أخرى شبيهة بالجن، آه كم هي لذيذة هذه المشروبات.

صحفيون آخرون أستأذنوا بالانصراف بسبب إنشغالهم في أماكن أخرى. وبما أنني مهتم بالصناعة الوطنية فقد آثرت البقاء.

قرابة الساعة الثامنة مساء لم يبق منا نحن الصحفيين سوى ثلاثة، احدنا مختص في شؤون الرياضة، والآخر في مجال الكلمات المتقاطعة، والثالث هو الداعي في شؤون النكتة والسخرية.

نظر المدير إلى وجوهنا نظرة غريبة وكأنه يود أن يقول أطعمناكم وسقيناكم وماذا تنتظرون بعد. دنوت من الصحفي المتخصص في الشؤون الرياضية وقلت له هامساً: «ماذا تنتظر؟!»

أجابني: «أنتظر أن أركب بسيارته».

أما الصحفي الآخر فقد كان من أصدقائه القدامى وعندما شارف حديثهما على الانتهاء، كان لابد من فتح حوار جديد يساهم في تحريك هذا الجو الراكد. سألته مرتبكاً من الخجل: «هل أستطيع الحصول على معلومات عن مصنعكم الكريم».

اضطرب المدير قليلاً، عندما سمع السؤال وقال:

ـ هاه، هاه حول مصنعي.

هذا المصنع كما تعلمون.... مزمار... أقصد مصنع الطناجر ذات المزمار. إنتاجيته التقديرية بحدود سبع وعشرين طنجرة ذات مزمار يومياً في السابق كانت في حدود خمس طناجر، وقريباً سترتفع إلى الأربعين إن الحكومة أدرجت في خطتها أن تأمين الحاجات للمواطنين لايقل أهمية عن تأمين السكن لكل مواطن. لذلك سنعمل جاهدين مضاعفة إنتاجيته.

صنعنا كل ما في وسعنا كي نستطيع تغطية حاجات الأخوة المواطنين. ولكن وكما تعلمون أنه تعترضنا بعض الصعوبات أتمنى أن تجد هذه الصعوبات وضرورة تذليلها مكانة لها في صحفكم الكريمة. إنني أقول لكم هذا خصوصاً أن جميع المواد الأولية التي نحتاجها، طناجر ــ أغطية طناجر، صواميل، مزامير، جميعها مستوردة من الولايات المتحدة الاميركية. دورنا في هذا المصنع يتجلى في تجميع هذه المواد. إن إنتاج الطناجر ذات المزمار، يعني أن تقوم صناعة محلية بجهد وكد عاملنا التركي. وبعد الانتهاء من صناعة الطنجرة نقوم بإلصاق شارة كتب عليها «صناعة وطنية، تم تشييد هذا المصنع برأس مال تركي أميركي» ـ المال من تركيا والعقل من أميركا ـ.

في الآونة الأخيرة ونظراً لعدم وصول القطع الرئيسية فإننا نجد صعوبات جدية في صناعة طناجر ذات مزمار. هل تعلمون يا سادة أن طناجرنا التي ننتجها أمتن وأفضل وأجود من الطناجر الأوروبية والاميركية لأن مزاميرنا أجمل وأجدى. فمثلاً إذا وضعتم الطنجرة على النار ورغبتم طهي الفاصولياء المزمار يصدر صوتاً جميلاً مألوفاً، يشبه صوت البزق الاذاعي.

أما الطناجر الاوربيــة فتطلـق أصواتـاً حـادة، كـم مـن النسـاء أجهضـن بسببها ومن ناحية ثانية فإن المزمار التركي متين، وبذلك نتوصل إلى نتيجة مفادها أن صناعتنا أفضل من الصناعة الأوربية.

ولكن هذا لايقلل من الصعوبـات الجدّيـة الـتي تواجهنـا وتعرقـل تطـور صناعتنا! فنحن نفكر جادين لإيجاد البدائل المحلية يعني سنحاول إنتــاج المزامير فقط، والراغب بإمكانه تركيب المزمار على طنجرة منزلـه، ولكـن في هذه الحالة تلزمه المراقبة الدائمة عند الاستخدام وعندمـا تسـتوي الطبخـة. يقوم المرء باستخدام المزمار وبذلك يكون قد أصبح صاحب طنجرة بالمزمـار، بالإضافة إلى ذلك فهناك فوائد جمّة ولعل أهمها، هـو أنَّ المـرء يسـتطيع أن يركب مدخنة بدلاً من المزمار، أو حتى طبلاً أو كمانـاً. لإن مصنعنـا وحـده يمتلك براءة هذا الاختراع.

هـل تتصـورون أن إستخدام الطبـل مـع الطنجـرة في البيـت أو المحـل سيسمع جميع الجوار صوت نضج الطعام.

شكرت السيد المدير كثيراً على هذه المعلومــات القيّمـة الـتي قدمهـا لنـا وبعدها ودعته وخرجت.

في اليوم التالي نشرت صحفنا الأخبار التالية:

ـ صناعتنا الناهضة.

ـ الطناجر التركية ذات المزمار أفضل من مثيلاتها الاوروبية.

ـ ننتج خمساً وعشرين مليون طنجرة سنوياً.

ـ عجباً وماذا بعد.

❑ ❑ ❑

ش ـ ت ـ م ـ ق ـ ت

منذ فترة طويلة وأنا أعمل في مهنـة التسكع. وقـد انعكسـت آثـار هـذه المهنة على وضعي النفسي.

ذات يوم عندما كنت أعبر أحد الجسور أخذت أحدث نفسي، بصوت عال، لا أدري لماذا بصوت عال، أهي جرأة الانتحار أم الخوف مـن المجهـول؟. لم أشعر إلا بصوتي العالي، وأحدهم يمسكني بيد قوية ويصرخ بي...

ـ أجننت يا نوري، هل أصابك مكروه؟.

عرفته مباشرة من نبرة صوته، صديق قديم حميم لم ألتق به منذ سنوات الدراسة إلا أنّ شظف العيش أنساني اسمه. تأبط ذراعي، وأخذنـا نسـتذكر الماضي.

ـ أين تعمل الآن يا نوري؟

أجبته والألم يفتك بكبدي...

ـ آه يا صاحبي، لو تدري ماذا أعمل وأين؟

أخرج من البيت الساعة الثامنة وأعـود إليـه في التاسعة مسـاء. فـترات طويلة أقضيها يومياً باحثاً عن العمل.

ـ إنه عمل شاق يا نوري، أليس كذلك؟.

ـ شاق...ماق، أحتاج إلى العمل.. أيّ عمل كان، تصور أنني مررت بجميع مؤسسات ودوائر استنبول وجميع المسؤولين في هذه الدوائر والمؤسسات كانوا موحدي الاجابة. «دع عنوانك سوف نعلمك بريدياً فيما بعد».

ـ أتكفيك ثلاثمائة ليرة شهرياً يا نوري.

ـ أتهزأ بي يا صاحبي وأنا المتسكع في الشوارع، سامحك ا لله.

ـ حسناً إذاً، اتفقنا، لنذهب معاً.

استغربت كثيراً من هذا الاتفاق المبهم ولكنّ توقُّف سيارة أجرة كان أسرع من ردة فعلي على هذا الاتفاق.

ركبنا معاً، ونزلنا أمام مخزن كبير، خطّت على يافطتة عدة أحرف لم افهم محتواها لكنها كانت جميلة ومتناسقة. «ش ـ ت ـ م ـ ق ـ ت»

ولجت المخرن خلف صديقي وعبرنا ردهة كبيرة واسعة وبعدها صعدنا السلم الخشبي المغطى بالسجاد الفاخر. دخلنا غرفة كبيرة وواسعة، مؤثثة بأثاث فاخر. عاجلني بحديثه بعد أن جلس خلف منضدته قائلاً:

لقد كنت من أكسل الطلاب يا نوري، وأكثرنا خمولاً وتقاعساً، وأنهيت دراستك بصعوبة ولم تستطع إنهاء المرحلة الجامعية أيها الأحمق، كل هذه السمات ولم تستطع أن تكون بارعاً في مهنة من المهن.

ـ نعم، نعم، قد ينقصني شيء ما، ولكن ما هو لا أدري؟ لا أدري!.

ـ هل تدري يا نوري بأنني صاحب هذا المخزن المتواضع؟!.

ـ أخذت الاستفسارات والاستفهامات تتأجج في أعماقي إلا أن سؤالاً واحداً شغل ذهني أكثر من سواه، ماذا تعني عبارة «ش ـ ت ـ م ـ ق ـ ت».

إلا أنه أجابني، ضاحكاً على الاستفسار:

ـ إنها رموز عبارة الشركة التركية المساهمة للقطع التبديلية.

ـ مساهمة؟!!! ومن هم المساهمون؟.

ـ لا أحد، ولكن عندما عملت لإشهار هذه الشركة وضعت إسم زوجتي وأختها في عداد المالكين. فكما تعلم إنّ عبارة «المساهمة» تعطي الامانة والاطمئنان للزبون وبذلك يتخوزق بسهولة، على كل ستعلم كل شيء فيما بعد.

ـ ولكن بماذا تتعاملون في هذه الشركة يا صاحبي، يعني ماذا تبيعون.

ـ لا شيء.

ـ كيف لاشيء؟!

ـ هكذا لا شيء، كما ترى مخزن كبير ورفوف خاوية. للحقيقة أقول بأن رفوف المخزن كانت خاوية تماماً إلا من بعض الأصص المزروعة بنباتات الزينة عريضة الأوراق. يا نوري إنّ لهذه الشركة فروعاً عدة في أضنة وقونية، ملاطية، أزمير، تصور أن في أنقرة وحدها خمسة فروع، وإذا رغبت بالعمل وكنت نشيطاً فسأعمل على تسليمك أحد الفروع التي سأفتتحها فيما بعد بذلك، تتحسن إجرتك وتصبح ألف ليرة.

ـ ولكن ماذا سأعمل هنا؟

سحب ملفاً وأشار إلى إحدى صفحاته قائلاً: «إن أسماء القطع التبديلية مدونة. وبجانبها أسعارها».

حاولت أن أسترق النظر فعرفت بعض ما هو مدون هناك. عمود مرافق، قميص سلندر، مضخة بنزين...

ـ بإمكانك مباشرة العمل فوراً إن رغبت.

نزلنا إلى الردهة سوية وهناك عرّفني على أحد الأشخاص، كان يقف وراء طاولة مصنوعة من خشب الجوز وقال له:

ـ يا صائم بيك، هذا صديق عزيز سيعمل لدينا، ساعده كي يستطيع الإلمام بطبيعة عملنا.

ولكي أثبت له أي لصديقي مدى اهتمامي وتمسكي بالعمل أخذت أراقب كل شاردة وواردة.

دخل المخزن قرويّان بينما كان صائم بيك يضيفني سيجارة.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضلوا واجلسوا، هل من خدمة أيها السادة الأفاضل.

اهتم صائم بيك بضيفيه كثيراً ولكن لم أعرف ما السبب.

ـ العفو، العفو يا صائم بيك، لقد وقعنا في ورطة ولا أحد يستطيع إنقاذنا سواك.

ـ من المؤكد أن سبب ورطتكم هو التراكتور ثانية.

ـ نعم يا صائم بيك، لقد كسرت السكة وكما تعلم لم نبذر بعد ويجب قلب التربة بسرعة ماذا تفعل يا صائم بيك، ساعدنا. هل هي موجودة لديكم.

ـ أوف، ورطة كبيرة أصابتكم ولكن، لِمَ لم تأتوا قبل خمس دقائق فقط. حظكم سيء لقد بعتها منذ قليل ولا يوجد غيرها لدي.

أخذ أحدهم يندب حظه ويضرب ركبتيه براحة كفيه.

ـ آه كنت سأنسى بأن أحد الأصدقاء أخبرني بتوفر واحدة لديه، لذلك لاتهتموا أيها السادة.

ـ دخيلك يا صائم بيك دعنا نذهب إليه فوراً.

ـ لاتهتموا يا سادة، دعوا ثمنها لديّ وعودوا بعد يومين.

ـ شكراً لك يا رب، الله يرضى عليك يا صائم بيك لايهم كم ثمنها...

ـ والله لا أدري كم يطلب بها، على فكرة أنا بعتها بخمس وعشرين ليرة، ولكن لا أخفيكم بأن صديقي هذا عديم الضمير. لادين ولا إيمان، تصوروا أنه لايفرق بين أمه وزوجته!!...

ـ أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم. حسناً يا عزيزي، نحن مضطرون لشرائها.

ـ كما قلت لكم، لقد بعتها بخمس وعشرين ليرة ولكن... إدفعوا لي ثلاثمائة وخمسين ليرة وبعد يومين كما اتفقنا.

دفع القرويّان المبلغ المذكور وانصرفا، أما صائم فقد ودعهما بمثل الحفاوة التي استقبلهما بها أو أكثر وتمنى لهما حظاً وفيراً ونجاحاً دائماً. وهما بدورهما أعربا عن شكرهما وامتنانهما على هذه الخدمة الجليلة.

وبعد انصرافهما مباشرة دخل قروي آخر يستفسر عن وجود مسنن علبة سرعة. تأسف صائم بيك لعدم وجود علبة سرعة. مبيناً مدى صعوبة إيجاد هذا المسنن ولكنه يتوفر لديه الفولان.

قال له: على كلّ أستطيع تأمينه من عند أحد الأصدقاء، ولكن يجب أن تكون على بينّة من أمرك بأنه رجل عديم الضمير... لايفرق.... ولا يعرف...

ـ أستغفر الله العظيم ما هذا الرجل، على كلّ لايهمنا أمره، فنحن نعرف شهامتك ويجب شراء المسنن بأي ثمن كان، لأن الجرار بدونه كجيفة مرمية في الحقل.

ـ حسناً، حسناً، إدفع لي ثلاثمائة ليرة وسأحاول جاهداً إقناعه، وأما إذا طلب أكثر من ذلك، فسنتفق سوياً فيما بعد.

دفع الرجل الثمن وانصرف. مودعاً بحفاوة.

بعد خروج ذلك القروي دخل الآخر يستفسر عن إمكانية تأمين الفولان «الحدافة». ردّ عليه صائم بيك مظهراً إهتمامه:

ـ سامحك الله يا أخي ألا تعلم أن الفولان غير متوفر في كل الأسواق، لديَّ مسنن علبة سرعة إذا كنت بحاجة إليه.

وهكذا أخذ صائم بيك يتعامل مع جميع الزبائن بدهاء وحذلقة متناهيين. يقول للذي يطلب عمود المرافق بأنه غير متوفر ولديه الكامات، ولا يمكن تأمين عمود المرافق إلا بصعوبة بالغة. والذي يطلب عمود الكامات يتذرع له بنفس الحجج.

ـ هل يوجد لديكم ذراع مكبس «بيال»؟

يوجد لدى مكبس «بستون» أما الذراع فمفقود. لكنه يوجد لدى... إلا أنه... لايفرق بين... و ...

يخرج هذا ويدخل ذاك والحديث يتكرر بالطريقة ذاتها والأسلوب ذاته مع الجميع.

دخل أحد القرويين مستفسراً عن صائم بيك، هل استطاع تأمين المحور «الأكس»؟؟

أجاب صائم بيك:

ـ نعم يا أخي ولكنه عديم الضمير كما أسلفت لك فهو يريد مئة ليرة أخرى.

يدفع القروي مئة ليرة أخرى بينما ينادي صائم بيك:

ـ يا واصل إذهب وأجلب المحور لأخي. يذهب واصل إلى المستودع ويجلب المحور من هناك.

عند المساء عاد صاحبي إلى المخزن وسألني بعد أن ألقى التحية علينا مستفسراً: «هل كان العمل مرهقاً؟».

أجبته: «لا، بل كان ممتعاً للغاية».

ـ كما لاحظت يا نوري نبيع لاشيء ونشتري لاشيء.

قمنا بتدقيق القيود والفواتير، فكما هو معروف لدى التجار بأن الفواتير والقيود الدقيقة تعكس مكانة وأهمية الشركة.

في أثناء ذلك ولج المخزن أحد الزبائن، وخزني صاحبي وقال لي:

ـ هيا لنرَ مدى استيعابك لأصول المهنة.

ـ رحبت به خير ترحيب، وسهلت بأخي الذي لم تلده أمي وقلت له مستفسراً: «بماذا أستطيع خدمتك يا أخي العزيز؟»

ـ هل يوجد لديكم قشاط مروحة؟.

بادرته بالحدريث فوراً كما تعلمت من صائم بيك.

أوف، كم حظك تعيس يا أخي، لو أتيت قبل لحظات، منذ دقائق عدة بعت آخر قشاط، لديّ قشاط بنطال أن رغبت، آ، آ، آ، تذكرت هذا القشاط متوفر لدى أحد الأصدقاء ولكنه عديم الضمير والوجدان لايعرف أباه، لايفرق بين أمه وزوجته.

ـ ولكن كم ثمنه؟.

ـ لاتسألني عن الثمن فأنا أخجل من نفسي لأنه عديم الضمير... عديم... بلا... لايفرق... يخرب بيته لايتنازل عن المئة ليرة علما بأنني بعت نفس القشاط بعشر ليرات حرام حرام، مئة ليرة من أجل قشاط مروحة.

دفع القروي مئة ليرة وأبلغني بأنه سيعود في اليوم التالي. ودعته بحفاوة لامثيل لها مكرراً على مسامعه:

ـ بلا دين، ولا إيمان، عدمٍ الضمير... لايعرف لايفرق... لقد وقعنا بين أيدي أناس رضعوا حليباً فاسداً من أثداء أمهاتهم، كلاب.

شدّ صاحبي على يدي قائلاً: «ما هذا التطور يا نوري بيك، ما شاء الله. منذ فترات طويلة وأنا أبحث عن شخص مثلك ما شاء الله أتقنت العمل خلال يوم واحد، لذلك سأرفع إجرتك وستصبح خمسمائة ليرة في الشهر.

منذ ستة أشهر وأنا أعمل في هذا المخزن. أجرتي ارتفعت وأصبحت ألف ليرة، ولكن لكي أحصل على هذه الأجرة أقوم بشتم أم وزوجة صاحبي هذا، وهو بدوره يسعد كثيراً كلما سمع هذه الشتائم.

ـ أحبيك... حقيقة أنك ذاك الشخص الذي أبحث عنه منذ فترة طويلة. يقول هذه العبارة ويتشبث بي أكثر.

❑ ❑ ❑

تقبل ا لله

في السادسة صباحاً مثلما عليه الحال في كل مرّة راح صاحب عمارة الأمل حمزة بيك ينادي، وهو يسعل سعالاً جافاً، البواب أمين أفندي، القاطن في القبو: «أمين أفندي، أمين أفندي».

أمين أفندي هذا يعمل بواباً في تلك العمارة منذ أربعة عشر عاماً، وبالإضافة لعمله الأصلي هنا فقد كان الناطق الرسمي وصديقه القريب مستوعب الآمه، مدير أعماله، حتى عرّافه، بإختصار كان كل شيء بالنسبة له.

ـ أمين أفندي، أمين أفندي.

اتجه أمين أفندي وهو ينظف حلقومه، باتجاه النافذة الخلفية حيث مصدر الصوت.

ـ أتيت، أتيت.

عمارة الأمل هذه مؤلفة من ستة طوابق وكل طابق من شقتين سكنيتين عدا الطابق الأرضي الذي يقع فوق القبو فقد كان مؤلفاً من مخزنين تجاريين أحدهما لتجارة الأجواخ والآخر لصنع الفطائر. أما القبو، فبالإضافة لكونه مكان سكن البواب فقد كان مستودعاً لحراقات التدفئة.

ـ أمين أفندي، وبينما كنت في حضرة ا لله أثناء صلاة الصبح.

ـ تقبل ا لله.

ـ هل تعلم ماذا تذكرت؟ فجأة تذكرت الشقة الرابعة، هل أخذت منهم إجرة هذا الشهر؟.

ـ نعم أخذتها وسلمتك إياها البارحة.

نعم أعرف ذلك، ولكن، أقصد الإجرة التي استلمتها هل كانت دون زيادة أم ماذا؟ تصور يا أمين أفندي أنني تذكرت ذلك فجأة عندما كنت أصلي، لقد طار صوابي، لا لن أسمح بذلك، هيا يا أمين أفندي إلى المحامي وقل له.. الله.. الله هل هؤلاء المستأجرين بلاء فوق رأسي؟ استغفر الله!... تصور أنهم يشغلون ذهني حتى أثناء الصلاة إذهب إلى المحامي واطلب منه أن يخليهم من منزلي... إذهب حالاً وقل له أن يرفع دعوى مستعجلة عليهم... عندما أخذت الأجرة منهم هل أعطيتهم وصلاً يشعر بذلك؟ حسناً قل للمحامي بأنهم لم يدفعوا أجرة البيت حتى لحظته. أوه ألا يستطيع المرء أن يجلس بين يدي ربه صافي البال، هيا يا أمين أفندي.

ـ ولكن يا بيك لايمكن أن يكون المحامي في مكتبه.

ـ أيعقل هذا يا أمين أفندي لقد أنتصف النهار، عليه الحضور إلى مكتبه بعد صلاة الصبح مباشرةً... إذهب وانتظره هناك.

ـ حسناً يا بيك، ولكن لم لا تتصل به هاتفياً.

ـ ماذا تقول!... لايجوز حل القضايا الجدية والحساسة بالهاتف، هيا إذهب وقل له كل شيء هيا إذهب ولا تتكاسل، ما هؤلاء القوم لقد فقدوا دينهم وضميرهم، استغفرا لله يسكنون في شقة مكيفة صيفاً شتاءً وبألف وثمانمائة ليرة.

أمين أفندي كان يعرف أنه لن يستخدم الهاتف ولن يدفع ليرة واحدة أجرة المخابرة حتى لو دفع أمين أفندي أجرة الطريق من جيبه الخاص. حمزة بك هذا كان من أصحاب الملايين، لديه معمل يديره ابنه وحصص في بنكين إثنين حيث أن حصته في الأول عشرين مليون ليرة والآخر ثلاث ملايين ونصف المليون، بالإضافة إلى مصنع لإنتاج الصابون يديره حفيده، هذا عدا الشقق الكبيرة، خاصة العمارة التي بناها في العام الماضي، عمارة مثل المدينة ذات ثمان وعشرين شقة هذا عدا عن سوق تجاري كامل في الطابق الأول.

ذات يوم وبينما كان أمين أفندي يتناول طعام الغداء سمع طرقات متتالية على النافذة وبعدها سمع صوت يقول: «أمين أفندي، أمين أفندي».

فتح أمين الباب وإذ حمزة بيك، هو الطارق:

- تفضل يا بيك.

- شكراً يا أمين أفندي، ولكن بينما كنت أصلي صلاة الظهر.

- تقبل ا لله يا بيك.

- هل تعلم ماذا خطر ببالي، تماماً وأنا في حالة السجود؟.

- ماذا يا بيك؟.

- في الصباح مررت بنيخو صاحب محل الفطائر تصوّر يا أمين أفندي أنّه لايستطيع تلبية طلبات الزبائن، مثل خلية النحل، تصور زوجته تساعده في المحل ولكن دون جدوى، كم إيراد المحل يومياً، أموال مثل الكشك، با لله عليك هل أنا على حق، أنا أحمق هاه؟. لا حول ولا قوة إلا با لله استغفر ا لله، لا، يجب أن أرفع الأجرة... هل إنتفت الاخلاق. إذهب وقل لنيخو، هذا الكافر، بأن أجرة المحل اصبحت واعتباراً من هذا الشهر ألفا ليرة، هل فهمت؟ قل له ذلك كي لاتدخل في متاهات المحاكم. كان سيفسد صلاتي هذا الكافر، لعنة ا لله عليك يا نيخو...

حمزة بيك، وحسب البطاقة الشخصيّة. في الثانية والسبعين إلا أنه كان يحاول إظهار نفسه أكبر من ذلك كثيراً. يقول بأنه في الخامسة والثمانين، ومنذ أن بلغ الخمسين عاماً راح يردد عبارة إحدى قدماي في القبر لأنه كان يفكر أن إطالة العمر تعني الوقار والاحترام.

ذات يوم راح حمزة بيك القاطن في الطابق السادس، يصرخ بأعلى صوته: «أمين افندي...»

كان يصرخ على الرغم من وجود جرس كهربائي يصل ما بين شقته وبيت أمين أفندي ولكن لِمَ الجرس الكهربائي والتبذير؟.

أطلّ أمين أفندي من نافذة بيته قائلاً: «أمرك يا بيك».

- هيا إصعد إليّ.

صعد أمين أفندي ستة طوابق مثل لمح البصر، بينما كان حمزة بيك في انتظاره.

ـ ياهو.. يا أمين أفندي بينما كنت أصلـي صـلاة العصر... ا لله يتقبـل مني... هل تعلم ماذا تذكرت؟...

ـ ياهو... ومن أين لي أن أعرف...؟

ـ ا لله، ا لله... ألم أقل لك.. صبرك يا أيوب. ألا يستطيع المرء الوقوف بين يديه مرتاح البال... مـاذا قلـت لـك؟... ألم أخـبرك مـا جـرى للخـط الكهربائي الذي ينير الدرج... هيا إذهب إلى جميـع القـاطنين واجمـع مـن كل واحد خمس عشرة ليرة كي أصلح الخط.. آه يـا أمـين أفنـدي كـم هـو رائع أنني تذكرت ذلك.. هل جمعت المبلغ أم نسيت مثل كل مرة؟، هيـا إذهب إليهم واجمـع منهـم المبلـغ المطلـوب، أو قـل لهـم أن يفصحـوا عـن الشخص الـذي خـرب خـط الإنـارة كـي يصلحـه علـى نفقتـه... البـدو... يسكنون بشقق فخمة مكيفة.. وا لله لم يبقَ سوى أن أوزع عليهم مصـاريفهم اليومية... استغفرك يا رب... أنت الوحيد يا ربي العارف بعذابـي... قـل لهم أن حمزة بيك لن يصلح خط التيار ما لم تدفعوا ما عليكم، هيـا إذهـب إليهم وقل لهم ذلك... إن ا لله مع الصابرين.

ذات مرة أتى خادم حمزة بيك إلى بيت أمين أفندي يخـبره بـأن حمـزة بيك بانتظاره ولكن بسبب إنشغال أمـين أفنـدي بحلاقـة ذقنـه قـال لـه أن البيك بانتظارك، وعليك الصعود إليه بعد الانتهاء من حلاقة ذقنك.

صعد أمين أفندي من فوره يسـتطلع الأمـر قـائلاً: «أمـرك يـا بيـك لقـد شغلت بالي».

ـ يهوه يا أمين أفنـدي ا لله يتقبـل صلاتـي وبينمـا كنـت أصلـي صـلاة العشاء فجأة هل تدري ماذا تذكرت؟.

ـ ماذا يا بيك؟.

ـ بعد الغداء مررت بصاحبنا كامل بيك صاحب مخزن تجـارة الاجـواخ وسألته عن أحوال العمل أجابني السوق جـامد، واقـف لابيـع ولاشـراء!.. ولك هل يظن أنني أحمق أو معتوه، أليس لديه غير هذا الرد، أوف لقد فقد الانسان مصداقيته وأمانته، تصور، مخزنه ملـيء بشـتى أنـواع المنسـوجات

والأجواخ والرجل يشكو من قلة البيع والشراء هل تعلم لماذا يا أمين أفندي؟ يقول ذلك حتى لا أرفع أجرة المخزن، لا وا لله لن أدعه يسرقني تصور يا أمين أفندي مخزن كبير بألفي ليرة، لا وا لله لن أدعه يخدعني هل فهمت؟ تصور كل ما أدخل إليه يدعو ربه كي لا يأتي إليه أحد حتى لا أراه يعمل ولو دخل أيّ زبون كان يعتذر عن بيعه لعدم توفر المطلوب. إنهم بلا ضمير يا أمين أفندي بلا إيمان، لا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم. لقد ارتفع ضغط دمي ثانية... آه يا أمين أفندي، ماذا افعل مع هؤلاء المستأجرين، سيقتلوني... تصور أنني أتذكرهم في حضرته عز وجل... هيا يا أمين أفندي. إذهب إليه وقل له: «طالما أنك تخسر في المخزن لِمَ لاتخرج وتسلّم المخزن ها؟» .أنا لا أحب الضرر لأحد لأنّ إحدى قدميّ في القبر... قل لعديم الضمير «كامل بيك» أن هناك من سيدفع ٥٠ ألف ليرة فروغاً للمحل... وسلفة مقدمة عن عام بحدود خمسة الآف، قل له أن يخلي المحل أو ستصبح الأجرة ثلاثة آلاف ليرة.

اضطرب حمزة بيك وأخذ يصرخ بأعلى صوته سيقتلوني أنا الرجل العجوز، ها قد بدأت بالرجفان هل سيدفعون لي ثمن الدواء فيما لو مرضت؟.

سمع أمين أفندي صوت الجرس الكهربائي بينما كان يهم بالدخول إلى غرفة النوم ومن المعروف أن الجرس الكهربائي كان يستخدم في الليل فقط لدعوته، لذلك أرتدى ثيابه وصعد مسرعاً كمن لدغته أفعى.

ـ أمين أفندي...

ـ نعم يا بيك.

ـ ليتقبل ا لله صلاتي، هل تعلم ماذا تذكرت في صلاة العشاء؟ عزيزي أمين لاتشغّل جهاز التدفئة غداً. الطقس والحمد لله لم يعد بارداً. ما شاء ا لله سيكون فصل الصيف في هذا العام حاراً، لقد نظرت إلى التقويم وجدت أن طيور السنونو ستمر غداً من فوق بلادنا... لمَ التدفئة المركزية؟ حرام.... سيحاسبنا ا لله على تبذيرنا، سيسألني ا لله يوم القيامة يا عبدي لقد أرسلت لك طيور السنونو مبشرةً بقدوم فصل الصيف وأنت ما زلت تشغل جهاز التدفئة، حرام إن ا لله لا يحب المبذرين، لذلك لاتشغل جهاز

التدفئة غداً فأنا أخاف الله، قل لهم لقد إنتهى فصل الشتاء. أمين أفندي لقد سمعت أحوال الطقس من المذياع عندما كنت أصلي، لقد أذاعوا بأن سرعة الرياح ستكون طبيعية وأن درجة الحرارة ستتجاوز الخمس مئوية.

أوف يا ربي، المسألة مسألة نهب واحتيال، يدفعون مائتي ليرة مقابل تشغيل جهاز التدفئة وكأنهم بذلك يريدون تشغيل التدفئة ليلاً نهاراً آه يا ربي ألهمني الصبر. آه آه... وحتى المياه الساخنة إقطعها عنهم، ومن لايعجبه هذا الاجراء ليخرج من البيت، لأنني لا أجبر أحداً على البقاء في بيتي.

مثلما عليه الحال في كل يوم طرق الباب.

ـ أمين أفندي، أمين أفندي.

أردف إثر هذا الصياح بمعزوفته اليومية والتي تتجلى بالسعال الجاف. فتح أمين أفندي الباب وهو يرتدي بنطاله.

ـ تفضل يا بيك.

ـ ليتقبل الله صلاتي، بينما كنت بين يدي الله في صلاة الصبح، قلت في نفسي طالما يسكنون وهم مرتاحي البال هاه ه ه؟... خطرت ببالي فكرة، لِمَ لا أعلن عن بيع البناء برمته، إعلان كاذب وهكذا سيتوافدون ليتفحصوا الشقق، ألن يدفعوا نقوداً مقابل شراء الشقق؟. لذا من حقهم تفحص ما يودون شراءه. من الطبيعي أنه لن يأتي لوحده بل مع زوجته والأولاد ليشاطروه الرأي. أمين أفندي... سأعلن عن بيعي البناء بأسعار متهاودة جداً كي أجلب الزبائن وهكذا سيتدفق الزبائن وبذلك سيفتح قاطنوا الشقق أبوابهم مرات عديدة، قل ثلاثين مرة على أقل تقدير يومياً كي يدخلوها ويتفحصوها، نعم ثلاثون مرة سيدخلون ويخرجون، هل فهمت؟ وهكذا سنخرجهم من جلودهم طوال العام سنحييهم على القلق ما بين الاستقبال والوداع ولن يستطيعوا الإعراب عن استيائهم لأن الشقق ملكي ومن حقي البيع والشراء. لقد أتعبوني يا أمين أفندي، لذلك علينا مضايقتهم كي يخرجوا من هنا،؟ كيف، أليست فكرة ذكية هاه؟ وبذلك نرغمهم على الاخلاء وبشكل غير مباشر، فأنا يا أمين كما تعلم طيّب القلب تصور يا أمين أن هذه الأفكار تراودني أثناء الصلاة.

بينما كان أمين أفندي منهمكاً بمسح جدران الدرج صادفه حمزة بيك قادماً من الزقاق.

ـ أمين أفندي، أنظر واسمعني جيداً ها أنـاذا قادم من المسجد بعدما أديت صلاة الجمعة «ا لله يتقبل مني صلاتي» هل تعلم يا أمين أفندي ما تذكرت عندما كنت أصلي لقد تذكرت أولئك القاطنين في الشقة الثامنة؟. لقد نسيت إخبارك بأن المياه تتسرب من عندهم طوال الليل، لقد خربوا ماسورة المياه إنهم سيهدمون عمارتي... فأنا إحدى قدميّ في القبر... لقد... صلاة الجمعة بسببهم... أفهمت؟. هذه العمارة ليست ملك كفار قل لهم أن حمزة بيك يرغب أن تدفعوا له أجرة سنوية سلفاً، سلفاً، هل فهمت... لأنك لن تجد هذه الأيام شقة بمئتي ليرة، تصور يا أمين أفندي أنهم خربوا الحديقة، آه منهم، إن ما فعلوه تعجز عنه قوات الاحتلال.

ـ أمين أفندي، أمين أفندي.

ـ نعم يا بيك.

إنني قادم من صلاة العيد. ا لله يتقبل مني، لقد راودتني فكرة أثناء الصلاة ولكن ما هي يا ربي؟... آه لقد نسيت ما أود قوله... إن تصرفات أولئك المستأجرين ستزهق عقلي، آه شيئاً ما كنت أود إعلامك به، تصور كنت في حالة الركوع عندما تذكرت، ولكن ما هو...؟ لقد أخذوا عقلي... آه نعم لقد تذكرت، كنت أصلي، ليتقبل ا لله مني، تذكرت أولئك القاطنين في الشقة الثالثة، خدعوني، تصور لقد قالوا لي بأن ليس لديهم أولاد، وإذ بهم يرزقون بولد بعد ثلاثة أشهر من سكنهم وهكذا في كل سنة، هذا لايجوز يا أمين أفندي، قال ا لله إن الكذب ممنوع في الدين الإسلامي، آه يا أمين أفندي لقد تذكرت ذلك وأنا في حضرة ا لله، قل لهم أنني أمهلهم مدة شهر كي يجدوا شقة أخرى. إقطع عنهم الماء وتحجج لهم بأن المواسير مكسورة، ما هذا طفل في كل عام!.. وهل افتتحت بيتي داراً لحضانة الأطفال أم أعشاشاً لهم، أوف ألا يستطيع المرء أن يقف بين يدي ا لله مرتاحاً، أوف يا أمين أفندي. حتى صباح هذا اليوم المبارك يشغلون تفكيري.

صعد أمين أفندي الذي يعمل بواباً منذ أربع عشرة سنة إلى الشقة السادسة وقرع بابها، سأل الخادم...

ـ أين البيك؟.

ـ يصلي...

دخل غرفة الانتظار وقال للخادم:

ـ عندما ينهي صلاته أخبره بأنني هنا.

بعد لحظات دخل حمزة بيك غرفة الانتظار وقال:

ـ يا للمصادفة، كنت سأرسل خلفك لأقول لك منذ قليل بينما أنا بين يدي الله.

رفع أمين أفندي يده مشيراً لحمزة بيك بالتوقف عن الكلام:

ـ قبل أن تقول لي ماذا تذكرت أثناء الصلاة سأقول لك بأنني قبل لحظات دخلت المرحاض وبينما أنا هناك قلت بيني وبين نفسي لِمَ ينزعج بيكنا؟. لِمَ؟ قلت أفضل شيء، لِمَ لايبيع هذه العمارة ويستريح من هم المستأجرين، هكذا فجأة ولكن هذا الشيطان الملعون قاتله الله. قلت، عفوك يا بيك، هذا القواد يملك العمارات، هذا الكافر، يملك الملايين عديم الضمير هذا، يملك المعامل، ولك هذا الشيخ الهرم قدماه الإثنتان في القبر، هل فهمت، هكذا والله يا بيك، خطرت ببالي بينما كنت في المرحاض، أموال لاتأكلها النيران. أوف إنه لايرحمني حتى في المرحاض!!

اصفر لون وجه حمزة بيك، ويداه أخذتا بالرجفان وخار على الأريكة.

ـ أمين أفندي، لاتصدق ما أوحاه لك الشيطان، نعم أملك الكثير من الأموال والعقارات ولكن لو بعت هذه العقارات فإني سأموت نعم سأموت يا أمين أفندي لأنني أعتدت على المشاجرة مع أولئك المستأجرين. ماذا أفعل؟.

في اليوم التالي اقترب حمزة بيك من مقهى الحي وكأنه يعرف أن أمين البواب موجود فيه ولعل ما زاد استغرابه أن ذاك الوقت لايصادف أي موعد للصلاة. وكما هو معروف فإن حمزة بيك لايتذكر الأشياء إلا أثناء الصلاة:

ـ أبحث عنك يا أمين أفندي، أين أنت منذ ساعة، فاليوم أنا معكر المزاج.

بالفعل مظهره الخارجي كان يدل على ذلك، صوته يرتجف كالباكي.

ـ أوف يا أمين أفندي لقد واريت صديقي، بل أعز أصدقائي الثرى وها أنا ذا قادم من الجنازة، إيه هذا مصير الانسان. إنا لله وإنا إليه لراجعون. ولكن أتدري ما خطر ببالي أثناء صلاة الجنازة؟ لقد قدم إلي أحدهم وطلب مني أن أقبله بواباً للعمارة وأن يدفع ثلاثة آلاف ليرة شهرياً، تصور يا أمين أفندي، سيدفع آلافاً لكي يعمل بواباً وأنا لا آخذ منك ولا متليكاً[1] واحداً.

قال أمين البواب: «حسناً، ليأتِ ذلك الرجل وليتسلّم البيت الذي أسكنه والعمل وأنا ذاهب لأجمع حوائجي.

استغرب حمزة بيك تصرفه كثيراً بل إنه لم يصدق ما يحدث أمامه..

ـ كيف، الآن، ولماذا؟..

ـ نعم حالاً.

ـ هكذا بكل بساطة دون أن تغضب أو تنزعج، وتعويضاتك عن خدماتك، هكذا دون محامي وقضاء حتى دون مخافر!.

ـ لا أريد قلت لك لاأريد، سأذهب وأجمع حوائجي.

ـ يا خسارة الدنيا، لم يعد لها طعم ولا لون. آه، لأذهب، إذ حان موعد صلاة العصر.

□ □ □

---

[1] متليك: من أجزاء الليرة العثمانية القديمة.

كيف تم القبض على حمدي السمين(*)

أرسل مركز شرطة استنبول إلى جميع مخافر الشرطة في المقاطعات البرقية التالية: «نعلمكم نبأ فرار المدعو حمدي السمين من يد الشرطة بعدما غلبهم النعاس وتهالكوا نائمين وأضناهم الكلل من جراء الحراسة الطويلة والمشددة التي تعدت ثلاثة أيام.

حمدي السمين في الخامسة والثلاثين طويل القامة وزنه مائتي كيلو غرام لون الوجه: حنطي، أسنانه الأمامية الثلاث مقلوعة، أحد الأضراس في الفك العلوي محشو، الناب السفلي الأيسر ملبس بالذهب، عيناه بنيتان، غبي الهيئة، ويجب الأخذ بعين الاعتبار أن المدعو حمدي السمين ذو سوابق خطيرة وله قدرة فائقة على اللف والدوران. وبعد التدقيق والتمحيص تبّين لنا أنه قد هرب فعلاً. لذلك نرجوكم وبالسرعة الكلية، ودون اضطرارنا للانتظار إعلامه. حال سؤاله لأي مخفر شرطة أو أي شرطي عن عنوان أو طريق، ضرورة حضوره إلى مركز شرطة استنبول كي يسلم نفسه عندما يجد الوقت المناسب. نرفق طياً صورة شخصية للمدعو حمدي السمين».

في أحد مخافر الشرطة دار الحديث المطول التالي بين رجلي شرطة:

- أخي!... يا أخي رمضان أنظر..! أنظر هناك حيث ذاك الرجل الذي يتناول السلحب. إنه حمدي السمين بلا ريب.

- هـ - هـ. آه نعم يشبه... أخرجْ صورته من جيبك لنرى.

أخرج رمضان الصورة من جيبه المنتفخة وناولها لصديقه.

(*) أعاد الكاتب الراحل عزيز نسين نشر هذه القصة ثانية قبل وفاته في مجموعة اسماها «ألا يوجد في بلدكم حمار». - ما اختاره عزيز نسين من قصص عزيز نسين - المترجم.

ـ إنها ليست صورته يا رمضان... بل هي صورتك.

ـ دعني أراها، آه نعم لقد تصورتها في العيد با لله عليك أليست جميلة؟!

ـ جميلة يا أخي رمضان، ولكن كانت ستكون أجمل لو ابتسمت قليلاً. هيا حاول أن تجد صورته قبل أن يغيب عن أنظارنا.

أعاد رمضان الصورة إلى جيبه وسحب بدلاً منها مجموعة من الصور الغير مرتبة وأخذ يبحث عن صورة حمدي السمين.

ـ هذه صورة ابني... وهذه الصورة ذكرى من أيام الخدمة الإلزامية العسكرية... محمود... يا أخي محمود لمن هذه الصورة؟ انظر جيداً.

هذه الصورة! هذه، يجب أن تكون صورة علي «علي الدخان» مهرب الهيروين.

ـ وهذه صورة صبحي فرّاش الفندق... اختلطت الصور، لذلك أخذ محمود قسماً منها ورمضان القسم الآخر، وبدأ كل منهما يبحث عن صورة حمدي السمين.

أسرع.. أسرع يا محمود قليلاً... لقد انتهى الرجل من تناول السحلب وقد يهرب الآن.

ـ انظر!... انظر كيف يتلفت إلى جانبه!.

ـ آه يا أخي محمود أخيراً وجدت صورته، بالتأكيد صورته...!

اقترب الشرطيان من المشتبه به، وطلب أحدهما منه الوقوف وأخذ ينظر تارة إلى وجهه وإلى الصورة تارةً أخرى.

ـ أدر وجهك إلى الجانب الآخر.

ـ آ آ آ، يشبهه يا رمضان، نعم إنه هو.

ـ هيا يا أخي محمود قد يستطيع المأمور مطابقته على الصورة.

هيا هيا.. سر أمامنا، ستذهب إلى مخفر الشرطة.

* * *

في السوق المركزي بإحدى المقاطعات دار حديث آخر بين شرطيين.

ـ من المعيب يا أخي شكري أننا لم نعثر علـى حمـدي السمين إلى الآن رغم البحث الطويل.

ـ أليس ذاك الرجل؟

ـ قد يكون... لنستفسر منه..

اقتربا من ذاك الرجل وسأله أحدهما...

ـ ما اسمك يا أفندينا؟.

ـ مصطفى...

حدق كل منهما بالآخر وأخذا يتهامسان.

ـ يقول أن إسمه مصطفى.

ـ بالتأكيد لن يقول حمدي... إنه يخفي اسمه عنا.

ـ لا... إنه يحاول السخرية منا.

ـ ستذهب معنا يا مولاي إلى مركز الشرطة.

* * *

وفي أحد المقاهي، دار الحديث التالي بين شرطيين.

ـ هل تعلم بأنني ألقيت القبض على ثلاثة وكل منهم حمـدي السـمين، إلا أن المأمور لم يعجبه أي واحد منهم.

هذا المأمور واحد ـ ـ ـرص هاه.

همس: «أخفض صوتك وانظر بطرف عينك إلى ذاك الرجل الذي يشرب الشاي».

ـ إنه هو... هو بعينه!!

ـ ولكن يا أخي تم إبلاغنا عبر ورقة البحث بأنه سمين وهـذا كما تـراه نحيل مثل...

ـ قد تكون هذه النحولة بسبب ملاحقتنا لـه، كمـا تعلـم فهـي ليسـت سهلة. قد يكون الإسمرار بسبب المسير الطويل في الغابات والسهول.

- معك حق ولكن رأسه مكسو بشعر أسود وجعد وكثيف، بينما حمدي السمين أصلع وخفيف الشعر.

- إيهيه، ألا ترى أن هذا الشعر الأسود ما هو إلا شعر مستعار!.

- إذاً ماذا تنتظر؟ لنلقِ القبض عليه!...

* * *

في مكان آخر اقترب شرطيّان من رجل وسأله أحدهما..

- ما اسمك يا أفندي؟.

- حمدي.

نظر كل منهما إلى الآخر نظرة إستغراب واستهجان، وابتسما إبتسامة مليئة بالحيرة والتوجس.

- هيا، ستذهب معنا إلى مخفر الشرطة.

- لِمَ... ماذا فعلت؟.

- لاتثرثر ولا تتغابى ستعرف هناك كل شيء.

* * *

في إحدى المقاطعات وكما حدث في جميع مقاطعات الولاية أوقف رجلاً من أحد السائرين على الطريق الإسفلتي الطويل..

- افتح فمك...

- آ... آ آ، لايوجد شيء في فمي...

- لِمَ لاتفتح فمك طالما لايوجد شيء؟.

فتح الرجل فمه مرغماً، وأخذ الرجل، رجل الأمن ينظر إلى فمه. التفت إلى صديقه هامساً!.

- انظر إلى بطاقة البحث وقل لي ما عدد الأسنان المقلوعة لدى حمدي السمين.

أجاب الآخر ناظراً إلى بطاقة البحث..

ـ ثلاثة، ثلاثة أسنان بالإضافة إلى أن الضرس العلوي محشي والناب السفلي الأيسر مغطى بالذهب.

أخذ رجل الأمن يحصي أسنان الرجل.

ـ واحد، إثنان، ثلاثة... أربعة، قلت لك لاتتحرك لقد أنسيتني لنبدأ من جديد. واحد...إثنان ثلاثة، أربعة خمسة... أربعة وعشرون، لديه أربع وعشرون سناً.

ـ أربع وعشرون! إذاً ما عدد الأسنان المقلوعة؟.

ـ كم عدد أسنانك المقلوعة يا هذا؟.

ـ ثمانية.

ـ قد يكون قلعها كي يخفي الدليل!.

ـ أسناني يا سيدي كلها صناعية، ولا يوجد في فمي أي سن طبيعي أربع أسنان قد كسرت وأنا آكل الذرة. «العرانيس».

ـ انظر يا أخي إلى بطاقة البحث. هل ذكر فيها نوع الأسنان أهي طبيعية أم لا.

ـ لا لم يذكروا شيئاً، قد نسوا ذلك.

ـ إذاً هو هذا الشخص يا عزيزي... نعم هو بعينه ولكن لنتأكد، انظر إلى نابه هل ملبّس بالذهب.

ـ هيا يا هذا ستذهب معنا إلى مخفر الشرطة.

ـ إلى أين؟.

ـ إلى مخفر الشرطة... هيا سر.

* * *

وصلت إلى مركز استنبول مئات البرقيات المرسلة من مراكز شرطة الأقاليم.

«في التاريخ الفلاني والساعة الفلانية وبفائق الاحترام نرد على برقيتكم الجليلة ونعلمكم بأننا استطعنا أن نجد في ولايتنا أربعة رجال مرتدين اللباس البني المخطط وثمانية لُبست أنيابهم بالذهب.

كذلك نعلمكم بأننا ألقينا القبض على أربعة عشر شخصاً يتسمون بسمات حمدي السمين ونرجو إبلاغنا عن مدى حاجتكم إلى المزيد من الحماميد السمان. نحن بانتظار أوامركم الكريمة».

«في التاريخ الفلاني والساعة الفلانية نرد على برقيتكم السامية ونعلمكم بأننا عثرنا في ولايتنا على أربعة وعشرين شخصاً وكل منهم حمدي السمين، أوزانهم تتراوح بين المئة وثمانين ومئتين وعشرين كيلو غرام. ونظراً لانخفاض حساسية موازيننا اعتمدنا لون العيون البنية بالإضافة إلى الوزن وبذلك يمكننا التأكيد أن جميع الموقوفين هم حمدي السمين دون أدنى شك».

* * *

وبدروها أرسلت مديرية أمن استنبول إلى جميع مخافر الولاية البرقية التالية: «إن جميع الأماكن المخصصة لإيقاف حمدي السمين نفذت، لذلك نرى إيقاف البحث عن حمدي السمين نرجوكم غض النظر حالياً ريثما تأتيكم أوامر جديدة بهذا الخصوص».

ملاحظة: أن المدعو حمدي السمين المجرم اللاحق مقبوض عليه وهو بين الموقوفين.

□ □ □

ذ ئب علي با با

أيها السادة، ألم تصدم أعينكم كلمة عيب في المعاجم. العدل والانصاف نصف الدين، كما يقولون، ولنقل ربعه في أسوأ تقدير.

با لله عليكم ماذا فعلت لكم، لمَ كل هذا الحقد؟

اعتقلت ذات مرة بسبب مجموعتي القصصية «عزيز نمه» والتي أحدثت ضجة دولية أدت إلى رفع دعاوي قضائية من قبل بريطانيا، مصر وإيران. على كل أمضيت فترة سجني حوالي ستة أشهر وبعدها أطلق سراحي. في اليوم التالي من اعتقالي قامت قائمة الصحافة كعادتها، وراحت تنشر الأخبار والتعليقات حسب رغباتها وتوجهاتها..

لنقرأ إحداها إذاً:

«ألقت الشرطة السرية القبض على عزيز نيسن مساء أمس في أحد المقاهي، والجدير بالذكر أنه كان في حالة يرثى لها، إذ إتحد شعر ذقنه بشعر رأسه بشكل كاريكاتوري».

لنقلب صفحات غيرها، ولنقرأ النبأ التالي:

«اعترف عزيز نسين بأنه كان يختبىء في الحدائق ليلاً، أما نهاراً فقد كان يجد في المقاهي ملاذاً له من أعين الشرطة».

لنقرأ خبراً آخر:

«أخيراً ألقي القبض على عزيز نسين في كاديكوي بعدما وضع احتمال فراراه خارج البلاد، تمّ ذلك عندما كان يهم بدخول إحدى الحانات».

لنقرأ في صحيفة أخرى:

«بعد فرار إستمر قرابة أربعة أشهر، تم إلقاء القبض وبصعوبة بالغة على عزيز نسين إذ قام رجال الشرطة بتطويق جميع الأماكن التي يمكن تواجده فيها».

سامحكم الله!!!... من أكون حتى تكتبوا عني بهذا الشكل؟ تصوروا أنني بتّ أخشى من نفسي، هل أنا ذئب ديار بكر، أم ذئب علي بابا؟.

لم تمض فترة طويلة حتى أتحفتنا إحدى الصحف بخبر آخر:

«تمت ملاحقة عزيز نسين بسبب اقترافه جريمة خطيرة مهدداً أمن الدولة».

ملخص القول أنكم جميعاً تدركون لماذا كتبوا عني بهذا الشكل، كذلك فأنا أيضاً أعرف ذلك تماماً.

نعم كنت مختفياً طيلة هذه المدة، ولكن ممّن، ولم؟ حتى أنني أفصحت عن ذلك في حضرة المحكمة.

استأجرت غرفة نائية في كاديكوي، ولكي لا ألتقي بأحد كنت أمضي جلّ وقتي في القراءة والكتابة في مكتبات استنبول لأنني كنت مقتنعاً بالمقولة الشعبية التي تقول:

«بقدر ما الشياطين بعيدين كل البعد عن المساجد، كذلك رجال الأمن أيضاً بعيدين عن المكتبات» ولكن ـ كما يقال ـ «الجنة بلا ناس لاتداس»، فأعصابي أخذت بالانهيار، قاتل الله الوحدة كثيراً ما كنت أفكر وأنا أسير في الطرقات، ألن أستطيع العيش بهناء وأمان، ألن أستطيع العمل في حضرة الناس بلا خوف أو وجل، هذه الأفكار والتي كانت كثيراً ما تراودني دفعتني تلك الليلة للاتجاه نحو كازينو مهردار الساحلي، هناك حيث النسيم العليل يداعب أطراف شعري ويدغدغ نهايات أناملي.

أمواج البحر ترتطم بالشاطىء محدثة صخباً ممتعاً ورائعاً، أما القمر فقد اكتمل وألقى بظلاله على البحر جاعلاً منه مرآة تنعكس عليها روعة وجمال مدينة استنبول. لحظات سعيدة لابدّ من الإستفادة منها خاصةً وأنا بعيد كل البعد عن أخطار الملاحقات. هذا الكازينو بالذات ضم بين جنباته كبار الشعراء والكتاب. تفقدت نقودي وجدتها كافية لمثل هذه الأمسية طلبت زجاجة بيرة وبعض المازاوات.

ـ آه يا مزاجي الرائع!... لِمَ لا أتوج أعوامي الأربعين بمثل هذه الأمسية قمر وبحر، موسيقا وبيرة... أوه.... ولكن يا خسارة لو كانت صديقتي معي لاكتملت متعة هذه السهرة. إذاً لأرخي العنان لخيالي، قد أستطيع تجسيدها بجانبي، وهذا ما فعلت، ألقيت بيدي على الكرسي الجانبي ورحت أعتصره كفتاة، أذناي تسكران بصدح الموسيقى وعيناي ترتشفان خمرة جمال استنبول، أما يداي فعلى كتف حبيبتي.

ـ زجاجة أخرى أيها النادل.

لأنتهز هذه الفرصة الفريدة التي قد لاتتكرر ثانيةً، بهذه الأثناء شعرت بشيء ما يدغدغ يدي الملتفة على الكرسي. شيء ما دافىء ومتحرك ينساب فوق يدي ولكي لا أفسد نشوة الاستمتاع لم أكلف نفسي عناء الإلتفات.

تناهى إلى مسامعي صوت.

ـ عزيز بيك.

أجبت:

ـ نعم يا روحي

ـ عزيز بيك.

ـ نعم يا حبيبتي.

ها هي حياتي وحبيبتي تتجسد أمامي، نعم قد تتحول الأحلام إلى حقيقة ولكن راح الصوت يزداد أجاشةً وخشونةً.

ـ عزيز بيك

ـ أمرك يا كبدي.

ـ ستذهب معنا إلى مديرية الأمن.

قفزت من مكاني كالمعتوه محطماً أحلامي. إذاً حبيبتي التي كنت أناغشها. لم تكن سوى رجل أمن.

رحت أستدر عطفه قائلاً:

ـ أرجوك دعني فاليوم السبت، هذا يعني أنني سأبقى في مديرية الأمن ليلتين، أرجوك دعني أذهب، والله! أعدك بأنني سآتي إليك يوم الاثنين صباحاً.

ـ لا، لا يمكن.

ـ حسناً إذا دعني أكمل زجاجتي.

ـ لا، لايمكن.

تصوروا أنه لم يتح لي فرصة تسديد الحساب.

وهكذا اعتقلوا ذئب علي بابا، ولكن ما أودّ قوله لعنة الله عليك يا... لأنك لم تسنح لي الفرصة بتتويج أعوامي الأربعين.

ملحق

تعرضت لهذه الحادثة الحقيقية في عام ١٩٤٨ عندما كان يعيش الحزب الاجتماعي الشعبي في أيامه الذهبية متربعاً على عرش السلطة، عرش الحزب الواحد. ولكن فيما بعد إزداد عدد الأحزاب وتوصل الحزب الديموقراطي إلى ذاك العرش وبذلك رحنا نقاسي هول الاستبداد والبطش وتحول شغلنا الشاغل إلى النضال ضدالاستبداد والمستبدين.

في عام ١٩٥٩ إزداد البطش والارهاب... لذلك رحنا نناضل ضد البطش والارهاب.

في يوم من الأيام التقيت صدفة بذاك الرجل ذي الصوت الأجش في إحدى المناطق الراقية، عندما كنت أنتقل من كاديكوي إلى استنبول. تصنعت عدم رؤيته، فكرت بيني وبي نفسي: بعد هذه الفترة الطويلة قد يكون صاحبنا هذا قد رقي إلى رتبة مفوض عام أو مساعده. اقترب مني وجلس بجانبي وراح يعبر لي بصفاقة لامثيل لها عن إعجابه بكتاباتي

ويمتدح بطولاتي وعلى أنني كنت منقذ الوطن، صاحبنا هذا كـان عضـواً في الحزب الاجتماعي الشعبي.

استغربت أمر هذا الرجل ولكن الذي زاد استغرابي إجابته على سؤالي:

ـ هل أصبحت مفوضاً عاماً؟

ـ لا يا روحي، لقد ابتعدت عـن هـذا الجهـاز مـن زمـان طويـل، وهـل يستأهلون الخدمة؟

وراح يحدثني عن نجاحاته في ميادين البناء والتعهدات.

صاحبنا كان يعمل في مجال تجارة العقارات إذا أنه يبـني الشـقق علـى نفقته الخاصة ومن ثم يبيعها، تذمر كثيراً من غلاء المواد وندرتها.

افترقنا على الجسر، نظرت إليه ملياً بعد أن مضى هذا الشرطي السـري السابق ومتعهد البناء الحالي. لقد حيّرتني هذه الحادثة الصغـيرة، ولا أدري هل حيّرتكم أيضاً.

❑ ❑ ❑

فرار يوم الزفاف

فرّت أمل ذات الستة عشر عاماً يوم زفافها، بحثوا عنها كثيراً، لم يتركوا مكاناً واحداً يمكن أن تتواجد فيه إلا طرقوه، لدى الجوار والصديقات، بحثوا كثيراً ولكن عبثاً.

استند خطيبها على أحد مصراعي الباب وراح يصرخ بأعلى صوته.

- «ولك» هل ظننتم أنني معتوه أم ماذا؟ هيا أخرجوها فالبضاعة لا تباع سوى مرة احدة!... لقد كشفت ألاعيبكم بانت فضيحتكم. تجذبون المرء بجمال ابنتكم ومن ثم تنتفون ريشه كالإوز.

أخذ والد أمل بالترجي كي يخفض صوته:

- دخيلك يا سليمان أفندي لا ترفع صوتك، تفضل ادخل وهناك نتفاهم.

وكلما ازداد الأهل توسلاً ازداد الخطيب صراخاً، خمس بل قل ست سنوات. نحن لم نأت إلى هذا البيت كي نُخدع ونقع في شراككم، بل كي نتزوج على سنة الله ورسوله. «ولك» تحاولون الدوس على كرامتي، لقد عبأت جيوبكم بالمال وماذا تريدون بعدها؟ لقد أفنيتموني. بهذه الأموال التي صرفتها عليكم أستطيع الزواج من ثماني نساء. كان هدفي الزواج من فتاة واعية وعصرية.

تدخلت الوالدة وقالت وهي باكية:

أرجوك يا سليمان بك، أدخل وقل ما تشاء. أما سليمان دوكمجي، والذي كان يعمل حائكاً في مجمع محمود باشا ازداد صراخه وعويله:

- إن الذي يود أن يخوزقني لم يلد ولن يولد قط.

تجمهر الجوار على صوت الدكمجي «النساج» الملعلع.

ـ أتخلى عن الفتاة إذا أعدتم لي كل أموالي التي أنفقتها على إبنتكم.

أجابه الوالد.

ـ حسناً، سنعيدها، وا لله سنعيدها، ومن أين سنجد عريساً، أفضل منك، ولكن هذه المعتوهة لم تقدر قيمتك، هذه العاقة أهانت شرفنا ولوثت كرامتنا، ولكن يا بني كن على يقين بأننا لن نخلّ باتفاقنا.

عقبت الوالدة على حديث زوجها قائلة:

ـ لقد نفذت كل ما طلبناه منك، حتى الإشارب والحذاء اشتريت لها.

ـ حذاء!... أي حذاء يا هذه؟ هل لبست طوال حياتها مثل ما ألبستها؟ ليهلكني ا لله قبل أن أخرج من هنا ـ وأخرج سيكارة وأشعلها ـ ليطفىء ا لله هذه السيجارة في عيني إذا كنت أكذب، لقد اشتريت الحذاء بأجري الأسبوعي، هل يتصرف أي خطيب مثلما تصرفت كل هذا كي أشبع نزواتها، أعيدوا لي كل ما أنفقت.

قالت الأم:

ـ بالطبع،، سنعيد كل ما أنفقت.

تدخل الزوج في الحديث موجهاً كلامه لزوجته.

ـ هيا قومي وأحضري كل الهدايا.

نهضت الزوجة وجلبت كل ما لديها من هدايا ورمتهم على الأرض بينما راح الدوكمجي سليمان يحصي أغراضه.

ـ كنت قد اشتريت لها زوجاً من الشحاطات أما أية شحاطات؟ بحثت يومين في كل سوق محمود باشا حتى وجدتها.

راحت الأم تلوم ابنتها قائلة:

ـ قاتلك ا لله يا أمل.

قال سليمان الدوكمجي:

ـ وا لله تخوزقت من هذه الخطوبة، من أين ستحصل إبنتكم على مثل هذه الهدايا بعد الآن. هذه الجوارب لن آخذها لأنها مستعملة.

ردّت عليه الأم: وا لله، لم تلبسها سوى مرة واحدة.

ـ ليكن، فالبضاعة المستعملة لاترد، هيا ستدفعون ثمنها ثماني ليرات ونصف الليرة، نايلون مئة بالمئة وإذا كنتم لاتصدقون، خذوا عنوان المخزن واسألوه.

وتابع العد... منشفة واحدة... بنطالان... هذان البنطالان أيضا لن أعيدها، عجيب أمر هذه الفتاة، لبستهما وكأنهما مشتريان من أموال أبيها... كيف سأقدمهما لمن ستصبح زوجتي فيما بعد.... وهذا الإشارب المجعلك!! لا عليكم سأعيده.

راحت الجارات يندبن حظ أمل على فقدانها مثل هذا العريس اللقطة بينما كان الدوكمجي يتفقد البقية الباقية من أغراضه.

ـ أين زوج الحلق الذي إشتريته بليرتين ونصف الليرة؟

وبعد أن اطمأن سليمان على جميع هداياه راح يطالب بالنفقات التي قام بها أثناء مشاويرهما.

ـ تصوروا، أنني أخذتها إلى بائع الحلويات، قلت لها أطلبي ماتشتهيه نفسك قلت لها وأنا على يقين أنه على الخطيب تلبية رغبات وحاجات خطيبته، اشتريت لها القطايف بالقشطة، ثلاث مرات، كذلك دخلنا السينما ثلاث مرات، وركبنا السيارات... تفوه على روح أبيها... وا لله تخوزقت، كيف؟. لا أدري المهم تخوزقت، لقد صرفت عليها أموالا طائلة. عليكم أن تعيدوا لي كل ما أنفقت.

قال والدها: أنت محق يا سليمان محق تماماً يا ولدي.

ـ إن وضعي النفسي لا يساعدني كي أتذكر كل شيء، آه أنا غاضب... آ آ آ تذكرت ذهبنا سوية إلى الكافتيريا ودفعت يومها عشرة ليرات «لك» رغم كل هذا وتتصرفون معي بمثل هذه النذالة والحقارة. إلتفت نحو والدها وقال: أتتذكر العرق الفاخر الذي شربته؟. من جلبه لك هاه، على كل لن أحاسبكم بكل شيء، المهم، أنكم خوزقتموني.

طلب والد أمل أن يمنحه الفرصة كي يسدد هذه النفقات والتي فاقت المائتين وثماني عشرة ليرة.

لم ينتظر الدوكمجي الأب كي يكمل حديثه إذ قاطعهُ قائلاً:

لا، لن أوافق، وإلا سأضطر إلى رفع دعوى قضائية، ألا يكفي أنكم نتفتم ريشي كإوزة، سأقول للقاضي لقد سلخوا جلدي مقابل زواجي من إبنتهم، سأطالب بتعويض إهانة شرف.

في هذه الأثناء تناهى إلى مسامع الحضور صوت فرملة سيارة توقفت أمام باب المنزل، وإذ بالمفاجأة الكبرى، قدوم أمل. قد تغيرت تماماً خلال هذين اليومين لدرجة أن والديها لم يتعرفا عليها إلا بصعوبة بالغة حتى الدوكمجي لم يستطع التعرف عليها إلا بعد فترة. لذلك كانت ستجمد الدماء في عروقهم، من شدة الدهشة، حتى والديها اللذين كانا ينويان تلقينها ما تستحق على فعلتها هذه، فغرا فاهيهما مندهشين. أمل هذه كانت مرتدية ثياباً فاضحة. أساور ذهبية، وشعر مصبوغ باللون الذهبي.

راحت الجارات يتهامسن.

- على الأغلب أنها أصبحت شر...

عندما دخلت أمل البيت كان الدوكمجي يصرخ بأعلى صوته.

لقد «أكلتم أموالي» لقد صرفت على إبنتكم الكثير، أريد المائتين وثماني عشرة ليرة.

استفسرت أمل من أمها قائلة:

- مذا يريد هذا الرجل؟.

أجابتها الأم باختصار شديد.

- أمواله.

- وأية أموال؟!

- يقول أنه أخذك إلى بائع الحلويات، كذلك إشترى لك الجوارب ولا أدري ماذا أيضاً...

إنحرج الدوكمجي كثيراً من هذا الحديث لذلك تدخل مباشرة.

- لا...! لست حقيراً حتى أطالب بهذه النفقات، لا، هذا عيب عليكم، وا لله لن أطالب بشيء حتى لو بلغ مليون ليرة، فأنا أفتديها بكل شيء.

رفعت أمل رأسها قليلاً وقالت مستهجنة: «إلى الآن لم أفهم شيئاً، وليكن بمعلومكم بأنني توظفت وأصبح لي راتب لذلك لن أتزوج أبداً، هذا مستحيل». وأخرجت من حقيبة يدها ثلاث وريقات نقدية من فئة المائة، وألقت بهم في وجه الدوكمجي قائلة: «خذ، معلمي يدفع مثل هذا المبلغ بخشيشاً للكرسون، هل فهمت ما أعنيه؟ خذ هذه النقود وأشبع بها عينيك الجائعتين».

راحت تحدق فيه بازدراء ثم استدارت مغلقة الباب خلفها، وركبت السيارة وقالت للسائق الذي كان ينتظرها.

هيا، إلى بي أوغلان.

لم يستفد الدوكمجي من هذا الدرس بل الأنكى من ذلك أنه راح يطالب قائلاً:

ـ كذلك اشتريت لها زجاجة عطر، هيا إدفعوا ثمنها وانصرف.

ملاحظات:

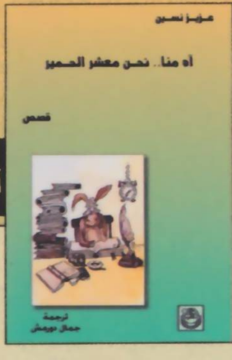
١) سوق محمد باشا: مجمع تجاري كبير في مدينة استنبول.

٢) بي أوغلان: منطقة في استنبول.

٣) جميع الأرقام الواردة في هذه القصة لاتعبر عن قيمة العملة التركية من هذه الأيام.

□ □ □

الفهرس



آه منا.. نحن معشر الحمير

تخطت مؤلفات عزيز نسين الأدبية حدود الجغرافية واللغة، ولامس أرواح القراء في بلدان العالم المختلفة. ورغم أن عمله الأول قد صدر بعد أن تجاوز الكاتب الأربعين فقد قدم خلال عقود أربعة أكثر من تسعين مؤلفاً في القصة والرواية والمسرح والشعر.

يبرز في أعمال نسين عمق في ملامسة هموم الانسان ضمن إطار ساخر فكه، ولعل ذلك من الأسباب التي أسهمت في انتشار نتاجاته.

في معرض جوابه عن أسباب الانتشار المطرد لمؤلفاته يقول عزيز نسين:

«هاجسي الوحيد هو تجسيد الفكرة ـ أية فكرة تجول في أعماقي ـ على الورق دون إهتمام بأي شيء آخر».

خلق عزيز نسين عالماً أدبياً متميزاً، له ملامحه الجمالية الخاصة به، وفي مجموعته القصصية هذه: «آه منا نحن معشر الحمير» يمكننا أن نرى ذلك بوضوح.